صندوق الدنيا

الطبعة الثانية

إبراهيم عبد القادر المازنى

صندوق الدنيا

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **الخبز**

التقنية: زيت على أبلكاش

المقاس: ٦٢ × ٧٨٫٥ سم

مقتنيات: متحف الفن الحديث بالقاهرة

محمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦)

ولد الفنان محمد ناجى بالإسكندرية، ودرس الفن فى مصر والخارج، وعمل مع كلوديا مونيه بباريس، وفى ١٩٣٧ أقام معرضاً للوحات التى صورها فى الحبشة (قاعة الفنون الجميلة بلندن)، وعين مديراً لمتحف الفن الحديث ١٩٣٩، ومديراً لأكاديمية مصر فى روما ١٩٤٧، والفنان ينحو تجاه الفن التأثيرى ذو الطبيعة المصرية، ويعد سابقاً لعصره.

محمود الهندى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

صندوق الدنيا

إبراهيم عبد القادر المازنى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

كنا نفرح « بصندوق الدنيا » ونحن أطفال ... نكون فى لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا « الصندوق » مقبلا من بعيد فيلقى ما بيده من « كرة » أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن فى أثره ، ونتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح، فما هى بثياب إلا على المجاز ، فهذا يمسك بكمه ، وذاك بحزامه ، وآخر يده على الصندوق، وهو سائر وظهره منحن تحت حمله ، ولحيته الكثة الغبراء مثنية على صدره ، ونحن نتلاغط حوله ونتوثب ، حتى يصير بنا إلى الظل ، فيضع « الدكة » الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتزاحم ونتدافع ونتصايح ونتشاتم قبل أن تستقر على أرجلها ، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقى منا على «دكته » ومن زحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكى ويتوجع ، أو يمضى إلى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده فى عينه .

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه ويقيمها أمامه ويرفع « الصندوق» ويحطه عليها ، فنزحف نحن « بالدكة » إليه وندنى وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة ، وننظر وننتظر . فإن صاحبنا لا يعجل ، ويطول بنا النظر إلى لا شىء . والانتظار على غير جدوى ، فنرتد برءوسنا عن عيون الصندوق ، ونرفع إليه وجوهنا الصغيرة ، فيبتسم ويبسط كفاً

كالرغيف ويقول « هاتوا أولا » فتندفع الأيدى إلى الجيوب تبحث عن الملاليم وانصافها فتفوز بها أو تخطئها ، فتبيض وجوه وتسود وجوه وتلمع عيون وتنطفئ عيون ، وتفتر شفاه وتمط أخرى أو تتدلى ، ويقبل « المعدم » على الموسر » يستسلفه ملحا ، ويحدث فى عالم الصغار مايحدث فى عالم الكبار ، من جود وبخل ، ومن مسارعة إلى النجدة أو اغتنامها فرصة للانتقام ، ومن مساومة ومشارطة ومطل ، ومن تعيير بجحود يد سلفت ، ومحاسبة على دين قديم ، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين أو ناقين ثائرين ، أو راضين غير عابئين ، ويقعد السعداء ويقبلون على « الصندوق » وقد نسوا أخوانهم ، فكأنهم ماخلقوا ولا كانوا منذ دقائق قليلة أنداداً يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويجد فى قربه الروح والغبطة والأنس ، ويطل الرجل من عين فى جانب « الصندوق » ويدير « اليد » فتبدو لعيوننا المشرئبة صور « السفيرة عزيزة » ربة الحسن والجمال ، و « عنترة ابن شداد » الذى كان :

يهزم الجيش أوحديا ويلوى

بالصناديد أيما الواء

و « الزير سالم » و « يوسف الحسن » . .

ويكف اللسان عن الوصف والتحدث ، واليد عن الإدارة والعرض ، فقد انتهى « الدور » واستوفينا حقنا ، فأما « دور » آخر بملاليم جديدة ، وإلا فالقناعة كنز لا يفنى .

وقد شببت عن الطوق جداً ، وخلفت ورائى طفولتى التى لا تعود .

وصرت غيرى فليس يعرفنى
إذا رآنى الشباب ذو الطرر

ولو بدا لى لبت أنكره
كأننى لم أكنه فى عمرى

كأننا اثنان ليس يجمعنا
فى العيش ، ألا تشبث الذكر

مات الفتى المازنى ثم أتى
من مازن غيره على الأثر(١)

ولكنى مازلت امت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أخراى معقودة بأولاها . كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر مافيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذى شبر فيافى الزمان ، وما له سوى آماله وهى لوافح ، ونجم سوى ذكرى نورها خافت .

لهذا سميته « صندوق الدنيا » .

---

(١) من قصيدتى « كأس النسيان » .

ولا أزال أجمع له وأحشد ، وما فتئ السؤال الأبدى عندى مذ حملت صندوقى على ظهرى « ماذا أصور ؟ » هذه هي المسألة كما يقول « هملت » فى روايته الخالدة ، والفرق بينى وبين هملت أنه معنى بالحياة والموت ، وبأن يكون أولا يكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبخعها ، أما أنا فلا يعنينى شئ من هذا ، ولست أرانى أحفل لا الحياة ولا الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول إنى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هذا ، ذلك انى صرت كالذى زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التى تعهد إليه فيها وتأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له، فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال : « ولكن متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا » .

كذلك أنا — أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها — أقوم من النوم لاكتب ، وآكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فالتهم لقمة واخط سطراً أو بعض سطر ، وأنام فأحلم انى اهتديت إلى موضوع ، وأفتح عينى فإذا بى قد نسيته فأبتسم وأذكر ذاك الذى رأى فى منامه أن رجلا جاءه فنقده تسعة وتسعين جنيها فأبى إلاأن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغةعاد فاطبق جفونه وبسط راحته وقال : « رضينا فهات ما معك » .

واشتاق أن الاعب أولادى فيصدنى أن الوقت ضيق لاينفسح للعب والعبث وأن على أن أكتب ، وأرى الحياة تزخر تحت عينى فاشتهى أن أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولاتمل

قولة « هات » وأكون فى المجلس الحالى بحسان الوجوه رقاق القلوب وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول :

آه على الرقة فى خـــدودها
لو أنهـا تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن وأروح أفكر فى كلام أكتبه صباح غد ؛ وأشرب فلا أسهو . وأضحك فلا اراني الهو ،ويضيق صدرى فأتمرد وأخرج إلى الطرقات أمتع العين بمـا فيهاما تعرضه الحياة ، فإذا بى أقول لنفسى أن كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال ، فأقنط وأكر راجعا إلى مكتبي لأكتب . . . وهكذا كأنى موكل بفضاء الصحف أملؤه ،كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلا بفضاء الله يذرعه .

وشر ما فى الأمر أن يجئ إلى صديق فيقول . . أقترح عليك ان تكتب فى كيت وكيت ، وتحاول أن تفهمه أن كيتا وكيتا هذين لا يحركان فى نفسك شيئاً ولا يهزان منهـا وتراً فلا يفهم ، لأنه ـــ على الارجح ـــ يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً ، وأن القلم هو الذى يجرى وحده بمـا يقطر من مراعفه وأن العقل والنفس لا دخل لها فيما يخطه .

وإذا ظللت أكتب وأكتب هكذا فماذا يكون ؟ لا أقول إنى سأفلس ، فإن الحياة لا تنفك أبداً جديدة فى رأى العين والعقل وهى لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس ، ولكنى خليق أن أجن . . .

نعم وماذا عسى أن يكون آخر هذا النصب ؟ ودع الجنون فلو كان إنسان يجن من كثرة ما كتب لكان عنوانى قد تغير منذ أعوام عديدة ، ولكن تعالى نجر حسابا صغيراً نسقط منه كل ما ليس بالأدنى .

أنا أكتب فى الأسبوع مقالين ، فجملة ذلك فى العام تبلغ المائة وكل مائة مقال تملأ خمسة كتب كهذا ، فسيكون لى اذن بعد عشرة أعوام — إذا ظللت هكذا — ثلاثون كتابا غير ما أخرجت قبل ذلك ، أى أن كتبي أنا وحدى تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء مايشتهون ولا يعدمون منها متعة أو سلوى ، وصاحبها لم يستفد إلا العناء .

والبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاهية ، والطامة الكبرى أن تكون المقالة جيدة ، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة . لا أمل لك بعد هذا أبداً . . . لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم بالفكاهات فى كل مقال آخر . فإذا أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة فالويل لك ، وأنت عندهم قد أصفيت أو ضعيف لا تحسن أن تكتب ، أو غير موفق فيما تحاول ، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن تمزح أو تتفكه . والناس معذورون ، فإن وطأة الحياة ثقيلة ، وما دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطعمتهم وأنشأت فى نفوسهم الأمل فى هذا فماذا تريد أن تتوقع ؟ ولكن الناس أيضاً خلقاء أن يذكروا أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب ، وانه لعل فى نفسه جرحا وفى صدره قيحا ، وأنه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون غيرهم ، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفافة البشر ولكن هموما تجثم على الصدور تقلص الوجه وتطفىء لمعة العين وتحبس البشر

الذى يريد أن ينطلق وترد الضحكة التى كانت تهم أن تقرقع

لقد صدقت فيما كتبت به إلى صديق على صورة لى .

أخـــوك إبراهيم يا مصطفى
كالبحر لايهـــدأ أو يستريح
كالبحر حى المـــوج يقظانه
لـــكنه من نفسه فى ضريح
من حوله الشطئان لاتنثنى
تحبسه دون انسياج الفتوح
خلت من المعنى لحـاظ له
وكانت البرق المضئ المليح
حـــواء يا أماه أنت التى
أورثتنى هـــذا البلاء الصريح
كم آدم أخرجت يا أمنـا
من خـلده ، بعد أبينا الطليح
الخ الخ الخ . .

وكما أن «صندوق الدنيا» القديم كان هو بريد «الفانوس السحرى» وشريط «السينما» وطليعتهما ، كذلك أرجو أن يقسم لصندوقى هذا أن يكون — فى عالم الأدب — تمهيدا لما هو أقوى وأتم وأحفل. وليبن غيرى القصور ، فقد أضنانى قطع الصخور ، وتفتيت الوعور . . .

ابرهيم عبد القادر المازنى

شذوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم، والشاعر على الخصوص، صنو المجنون وندّه وقريعه، وقد لا يقولون ذلك بألسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه، فهم يفرضون فيه الشذوذ عن المألوف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل ما يصدر عنه على هذا المحمل ويردونه إلى هذا الأصل عندهم، وليس فى هذا إكبار منهم له، فانه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف المتائثين الذين يطلقون عليهم وصف « المجاذيب » كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية، ولو أن الناس رأوا رجلا يلبس ثيابه مقلوبة، أو يمشى على رأسه وقيل لهم انه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب، كان المشى على الرأس شيء يوائم الشاعـــرية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عبابها . .

عرفنى مرة احد الأخوان باثنين من الاعيان كانا معه فى مجلس فكان مما وصفنى لهما به انى شاعر فابرقت اساريرهما وغمر البشر وجهيهما واستغنيا عن « تشرفنا » واعتاضا منها « ماشاء الله » و(سبحان الفتاح) واقبل على أحدهما يربت لى ظهرى ويمسحه لى بكف كمضرب الكرة ويقول: « اسمعنا شيئاً » كأنما كنت مغنيا على الربابة ، ولو انى كنته لاستحييت أن اجيبهما إلى ماطلبا على قارعة الطريق ولشد ما خفت — وهما يلحان على — أن يمد أحدهما يده إلى بقرش . .

وقد يتفق لى أن أكون مع جماعة من الاخوان فافضى بالملاحظة أو الفكرة أحسبنى وفقت فيها وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا « خيال شاعر » وليته مع ذلك يعنى شيئا سوى الفوضى والهذيان وقد أسكت وأشغل نفسى عنهم بشىء أفكر فيه فانتبه على التغامز .

والبلاء والداء العياء أن المرء يتحرى أن يجعل سلوكه مطابقاً على أدق وجه للعرف والعادة فى كل صغيرة وكبيرة فلا يرى أن هذا يزيده الا شذوذا فى رأيهم. كان هذا الشذوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشذوا هم معه .كنت ليلة مستغرقا فى النوم ـــ ولعلى كنت أغط أيضا . وإذا بالباب يقرع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تحطيمه ، ففزعت وقمت إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال فلان . فحل العجب والحيرة محل الفزع ، ولم يكن فلان هذا ممن أتوقع زيارتهم فى النهار فضلا عن الليل ، وفى الصيف فضلا عن الشتاء ببرده القارس ومطره المنهمر وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، فلولا دهشة المفاجأة والحاجة الرغبة فى الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقذفته من النافذة بكل ما فى الغرفة من أحذية ومخدات بل لفككت السرير وهشمت له رأسه بأعمدته ـــ من النافذة أيضا . فقد كان فوق ذلك كله من أثقل خلق الله .

ونزلت اليه والمصباح فى يدى وفتحت الباب ووقفت فى مدخله « حجر عثرة » فى سبيله وبودى لو أستيطع أن أكون «حجر منية» فجرى بيننا هذا الحديث :

هو — ليلتك سعيدة .

أنا — مصححاً — نهارك سعيد

هو — آه صحيح . . نهارك سعيد . هل كنت نائماً ؟

أنا — نائماً ؟ وماذا كنت تظنني فاعلا غير ذلك ؟ اكنت تتوهم أنني هنا حارس ؟

هو — ها ها . . هأ هأ هأ . .

أنا — ها ها ؟ ؟ ماذا تعني بهاهاك هذه ؟ ألا تشعر أن من واجبك أن تبين لى السبب فى ازعاجى فى ساعة كهذه ؟ ألا ترى أن ها ها التى تملأ بها طباق الجو لا تكفى وأن خيرا لك أن تضم فكيك قليلا وتتكلم بلغة مفهومة ؟

هو — لقد كنت أظن انك . . .

أنا — كنت تظن ماذا ؟

هو — وعلى وجهه ابتسامة جعلته كجمجمة الميت — لم يخطر لى والله أنك نائم .

أنا — بصوت هادىء ولهجة مرة — ولماذا بالله ؟

فترك الجواب على هذا وقال :

— لست استغرب أن تتركنى واقفا بالباب فى هذا البرد وأن كنت قدقطعت اليك أربعة كيلو مترات مشيا على قدمى ، فان لكم معاشر الشعراء لاطوارا وبدوات غير مأمونة .

فأطار صوابى تحميله اياى اللوم على ذنبه ولم أعد أحفل أهو أقوى

منى أم أضعف فقبضت على عنقه وصحت به

ـــ لقد كان ينبغي أن تمشى إلى جنهم . وسأدفنك حيا إذا رأيتك هنا ليلا أو نهارا أسمعت ؟

ودفعته عنى فانطلق يعدو كالقنبلة

وثم من يرانى أنسى شيئا أو أضعه فى غير موضعه أو أهمل أمرا أو أطيل الصمت أو أفعل حتى مايفعله الناس . . . أكل أو أشرب أو أنام ، ألا أحالوا على الأدب وتخيلوا فيما أنا فاعل او تارك شذوذا ملحوظا حتى ضقت ذرعا بهذه الحال وصار وكدى ان اقنع كل من يتيسر لى اقناعه انى لست بالاديب ، وان قرض الشعر لم يكن منى الا لهوا وتسلية ـــ وعسى ان اكون افلحت فليس امض للانسان من ان يرى الناس يعدونه غير مسئول

الصغار والكبار

قلت لابنى عصر يوم - وفى نيتى أن أزجره زجراً قويا عن العبث بكل ما تصل إليه يده « أتحب أن تخرج معى اليوم ؟ » وسبقته إلى الباب الخلفى المفضى إلى الصحراء وقلما كنت استصحبه لتعذر السير عليه فى الرمال ، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفى ليلحق بى . فلما اطمأن بنا السير شرعت استقصى معه ما يعلم وما يجهل وما ينبغى أن يعلم ، وكانت خلاصة دفاعه - بألفاظى أنا لا بألفاظه هو - أنه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسرا فى فهمها وإدراكها ، مضافاً إلى ذلك أنه لا يدرى كيف يمكن أن تعنيه هذه المعارف التى يطلب منه الإلمام بها ، وان كثيرا مما يشتهى أن يعرفه ويلذ له ويمتعه أن يحيط به ، لا يجد من يدله عليه هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف ، أما من حيث السلوك والسيرة ، فالمسألة أدق والمشكل أشد تعقداً ، ذلك أنه لا يزال يلقن - فى المدرسة وفى البيت - أن للخير والشر آثارا ونتائج تحيره جدا حين يتأملها أو يحاول أن يردها إلى اسبابها ، مثال ذلك أنه غافل النامرة واقتطف من الكرمة عنقودا اضطره اقتطافه إلى المخاطرة بالتسلق ، وأكله ، ولم يكتمنى أنه كذب حين سئل فى ذلك فقال - أن العنب كان يثب إلى فمه. ومن العجيب - فى رأيه هو - أنه كان فى ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوء ما وأن

الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلسة، ولا على الخطأ فى كظ معدته وإد خال طعام على طعام. ولم أكن أتوقع من ابنى هذه المحاضرة التى باغتنى بها وعارض لى فيها الواقع بما فى الكتب وما على ألسنة المربين، فحرت ولم أدر ماذا أقول له. وتحلل العزم على تأنيبه وألفيتنى أفكر فى الطفولة وطبيعتها، وفيما نمسخ به هذه الطبيعة بما نحاول من إكراهها عليه وصبها فيه، ثم تملكنى روح العبث الذى انكره عليه والذى كنت أهم أن أزجره عنه، فقعدت على الرمل واقعدته أمامى وقلت له بعبارة أقرب من هذه إلى مستوى إدراكه.

« أسمع. إنى أفكر الآن فى تأليف كتاب على نمط جديد، كتاب مدرسى ولكنه يخالف كل ما فى المدارس من الكتب، كتاب لذيذ ممتع جدا، ولكنى لا أستطيع أن أضعه وحدى، بل لا بد لى من معين فما قولك فى معاونتى؟ هل تقبل أن تشاركنى فى تأليف هذا الكتاب؟ »

فنهض إلى ركبتيه واقبل على وجهى يربت لى خدى بكفيه الصغيرتين ويسألنى وهو يضحك:

« يا بابا ماذا تقول؟ »

« أقول إنى أريد ـ بمعونتك ـ أن نصلح هذه الدنيا التى نراها ـ أنا وأنت ـ مقلوبة؟ »

قال « وكيف تفعل ذلك؟ وكيف أساعدك أنا؟ وماذا يسعنى؟ »

قلت « يسعك شىء كثير جدا، فليس كونك صغيرا بمانع أن يكون

لك عمل كبير . ولكن لا تربكنى بكثرة الاسئلة ، وخير لنا وانجح لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل . ويجب قبل كل شيء أن أكون واثقاً من استعدادك لمعاونتى ومن انك ستفكر تفكيراً جديا فيما يستقر عليه رأينا »

فتعهد لى بذلك . فقلت له

« أليست شكواك أن الكبار من أمثالى .. »

« ليسوا من أمثالك يا بابا .. »

« حسن ـ أليست شكواك أن الكبار ـ غيرى ـ لا يحسنون تعليم الصغار أمثالك ؟ »

قال نعم

قلت ماضياً فى كلامى ـ « وأن الكبار يلزمون الصغار سلوكا يبدو للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة ؟ »

قال « نعم . وأنا اقول لك ـ لماذا ينبغى دائماً أن أنام فى الساعة الثامنة ؟لماذا لا يسمح لى بالسهر أحياناً مع الكبار إلى أن أحس بالحاجة إلى النوم ؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتى ـ حتى فى النهار ـ فانها تقول لى إنى ولد عنيد . »

قلت « هذا صحيح وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبدا لك أن تقول كلمة كغيرك من الجالسين ، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء سلوك « أليس كذلك ؟ »

فهز رأسه مرات وهو لا يستطيع النطق من الاغراق فى الضحك ومضيت أنا فى ملاحظاتى التى شاقته وأعجبته وأرضته فقلت :

« وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك انك شقى وأن اللعب بالكرة غير محمود ، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم ، زعموا انك سيء الطبع ، أو ادعوا إنك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من زيت الخروع .. »

فقاطعنى متمماً لى ملاحظاتى :

« وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا إنى أنا الذى خبأته ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهمونى أنا ، وأجادلهم وأبين لهم أن لا دخل لى فى ذلك كله فيختمون حوارهم معى بأنهم تعبوا من الكلام معى كأنى أنا لم أتعب أيضاً من سماع كلامهم »

فقلت بدورى مقاطعاً :

« وإذا كسروا قلة أو كوبا لم يسألوا عيونهم لماذا لم ترها كأن عيونهم ليست مكلفة أن تبصر شيئاً أبعد من أنوفهم ، بل راحوا يتساءلون عمن وضع القلة هنا كأن واضعها هو المسئول.. »

قال « أما إذا كسرتها أنا فالويل لى من شيطـــان يجب أن يحبس فى غرفته منفرداً »

قلت « وإذا كلفوك أن تأتى بشيء ولم تجده لأنه ليس فى المكان

الذى بعثوا بك اليه ، أو لأن شخصاً نقله ، فانك تكون فى رأيهم ولدا خائباً وغبياً لا يفهم »

قال « وانا دائما المخطىء وهم أبدا على صواب حتى صرت واثقاً انى لا يمكن أن أكون مصيباً فى عمل أو قول ، وهذا يحيرنى جدا ويربكنى يا بابا »

قلت « اظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهر الحدود بين المعالم ، وسنقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبدا ، والكبار هم الأغبياء البلداء الذين لا يصيبون والذين يحتاجون إلى الرقابة والإرشاد والتأديب والزجر . »

فطار الغلام من الفرح ووثب إلى رجليه وانهال على تقبيلا وألح على بالسؤال ـ « اصحيح ما تقول يا بابا ؟ »

« قلت » نعم.وسنسميه.(المختار فى تهذيب الكبار) ونجعل الصغار هم الذين يبقون فى البيت لتدبير شئونه ، والكبار هم الذين يذهبون إلى المدرسة ونلبسهم ما يلبس التلاميذ والتلميذات الآن من البذلات القصيرة ونقص لجدتك شعرها ونخرجها فى قبعة من قبعـات البنات الصغيرة ونضع لها على صدرها (مريلة) ونبعث بها إلى المدرسة ، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها إلى الحائط ، وإذا أكثرت من اللعب حرمناها الحلوى وإذا لم تنم فى الساعة الثامنة عددناها سيئة الخلق عنيدة ولم نخرج بها للرياضة فى يوم الجمعة .

قال « ويجب أن نحرم عليها اللعب إلا مع لداتها من الجدات نظائرها

وإذا وجدناها تلاعب واحدة من الشوب عاقبناها بالحبس فى غرفتها وإذا جلست ساكتة أو لم تتناول طعامها بإقبال أنمناها فى سريرها وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع وإذا كرهت طعمه أو تقززت من مذاقه قلنا لها أنه يفيدها وإننا نحن نعرف ما يصلح لها ومالا يصلح وإذا جلست معنا واشتركت فى الحديث انتهرناها بنظرة ، فاذا لم تكف أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار . . . »

قلت : « وإذا سألتنا — أعنى إذا سألت الصغار — عن شيء نجهله قلنا لها أن هذا الأمر لاتستطيعين فهمه وإدراكه الآن والسيدة المهذبة يجب ألا تكثر من الأسئلة أو تحشر أصابعها فيم لاتفهم » .

قال « وإذا أكلت من الشيكولاتة أكثر مما يوافقها لم نأخذها إلى السينما وحرمناها مناظر شارلى شابلن وأضرابه . »

ثم رفع إلى وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدى وسألنى .

« ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملاعبتهم ؟ »

قلت « بقدر . وعلى أن يكون لنا — أعنى للصغار — حق المراقبة والتدخل إذا وجدنا أن الضرورة تقتضى ذلك . »

قال : « والدروس التى نتلقاها الآن ألا يتغير منها شيء ؟ »

قلت « أكثرها يبقى كما هو ، ولكن الموضـــوع من كتب المطالعة والمحفوظات يتغير لأنه فى الأصل مجعول للأطفال ، وهذا يعود بنا إلى مشروعنا ، فان الذى أفكر فيه وأريد منك أن تعيننى عليه ، هو كتاب

يحتوى طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك ومالهم وما عليهم فى الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم ، ولذلك ينبغى أن يلغى من الكتب أمثال (سمير الأطفال) و (القراءة الرشـــيدة) للأطفال فانها جميعاً لاتصلح لمشروعنا . »

قال : « ومن يؤلف هذه القصص ؟ »

قلت : « أنا وانت،ولسنا نحتاح إلى تعب كبير لأن الأمر لا يتطلب فيما أقدر إلا تحويراً قليلا يجعل القصة للكبار بدلا من الصغار »

قال : « وهل نطبع الكتاب ونبيعه ؟ »

قلت : « ولم نتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبيعه ؟ ».

قال : « وهل يشتريه الكبار ويقرأونه ؟ »

قلت : « إذا لم يفعلوا فان فى وسعى أن أوعز إلى نفر من أصدقائى بأن يحملوا فى الصحف على الكتاب حملة عنيفة ، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناف لكل مادرجت عليه الانسانية ، وهذا وحده كفيل بترويجه »

قال : « وهل كل مايخالف الاداب يطلبه الناس ؟ »

قلت : « لا أستطيع أن أقول نعم أولا ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع النـــاس إلى طلب هذا الكتاب الفريد فى بابه » .

قال : « وكيف تقرأه جدتى وهى أمية ؟ »

قلت : « ان الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك مما يسوغ مشروعنا ويجعله ضروريا ، أليس الواقع الآن فى الأغلب والاعم أن الجهلاء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم فى الحياة واختيار ما يصلح لهم ، والأمر ينبغى أن يكون على نقيض ذلك » .

قال : ولكن إذا لم نحسن تدبير المنزل أو إذا لم تجد الصغيرات مثلا طهى الطعام وتذمر منه الكبار ؟ »

قلت : « لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن ، وما علينا إلا أن نتهمهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك»

فضحك وقال : « إنك ماهر جدا يابابا ، ولابد أن يكون الكبار قد ضايقوك جدا فى صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم » .

ثم ألقى إلى نظرة خبيثة وهو يسأل « هل كان أبوك ثقيلا يابابا ؟ »

فتماسكت بجهد وسألته بدورى :

« ثقيلا مثل من ؟ »

قال : « لا أعنى مثل أحد ولكنه سؤال فهل أخطأت فيه ؟ »

قلت « كلا ولم يكن أبى ثقيلا فيما أذكر ، وعلى أنه لم تتح له معى فرصة كبيرة لذلك ، فقد مات وأنا صغير » .

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل فى مثل هذه

الأسئلة المحرجة ، التى جرها على التبسط معه فى هذا الموضوع والأطفال — كما يعرف ذلك من كابدهم — لا يستطيع المرء أن يتكهن بما يجرى فى رؤوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم فان لهم وثبات غير مأمونة .

فنهضت وطلبت منه أن يفكر فى الموضـــوع ، وبينما كنا عائدين سألنى لجأة .

« وانت يابابا هل نضعك مع الكبار أم مع الصغار ؟ »

فدفعت الباب ولم أحر نطقاً .

الحقائق البارزة فى حياتى

تمهيد — حدث منذ عامين ، أو نحو ذلك . . ان حومت الجريدة التى كنت أتولى رياسة التحرير فيها ،حقاً ، ولا داعى هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه ، وليس هذا على كل حال محله ، فكتبت على أثر ذلك مقالا قوياً — أو لعل الأصح أن أقول إنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بفصه ونصه ، وبعد يوم وجدت على مكتبى بطاقة (دكتور) يراسل صحيفة نمسوية وكلاما فى ظهر البطاقة حسبته فى أول الأمر ألمانيا ثم قيل لى إنه فرنسى ثم تبين إنه انجليزى فاقتنعت ولم أواصل البحث مخافة أن يتضح إنه عربى وأوجز فأقول انى استقبلت الزميل الفاضل فى مكتبى فى الساعة التى اتفقنا عليها تليفونيا . ولم يتجاوز الفرق بين ما فهمته انا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر ، فكنت أنا جالساً أمام مكتبى فى الساعة الثالثة مساء ووافانى هو فى الساعة السابعة مقدماً بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة ، ودار الحديث بيننا فأفضيت إليه بجواب ما اعتقد مخلصاً إنه سألنى عنه وبايضاح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسى ومواقف الأحزاب فى ذلك الوقت وما إلى ذلك مما يتصل به من قريب أو بعيد، واعتقدت إن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنى شك فى ان الله أرحم من أن يبلونى بحديث آخر ، ولكن المقادير جرت لسوء الحظ أو لحسنه ، بغير ذلك

فعاد الدكتور الفاضل يرجو منى شيئاً آخر لا أقل من أن اتفضل عليه بترجمتى أو تاريخ حياتى وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض له طلبا ، ولكن تاريخ حياتى !! . . تصور هذا ؟ فأحلته أولا على ترجمة كنت قد كتبتها منذ سنوات تمهيداً لمختارات من شعرى وقد نشر ذلك كله فى كتاب « شعراء العصر » ولكنه اعتذر وقال إنه فهم من كلامى إن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وإن الكتاب مطبوع فى سوريا ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لا شك عنده فى إنه لو تيسر له السفر لألفى الترجمة التى أشير إليها وافية بالغرض ثم تفضل فذكر لى أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من المصريين انى من رجال المدرسة الحديثة فى الأدب وإن هذا هو الباعث له على الالحاح على فى الرجاء أن أوافيه بترجمتى فسرنى هذا ورأيت فيه فرصة لانتشار اسمى إلى ماوراء مصر واستفاضة ذكرى على السنة الغربيين . وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدم إلى واحد أو اثنان أو ثلاثة من ناشرى الكتب فى أوروبا يطلبون السماح لهم بترجمة كتبى وإذاعتها فى العالم الغربى ، فلا يعود المازنى بعد محتاجاً إلى وظيفة ثقيلة مضنية كرياسة التحرير فى صحيفة يومية . ففركت يدى مغتبطا وقلت له انى طوع أمره ورهن مشيئته ولكن بى حاجة إلى يوم أو يومين اجمع فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهنى استعداداً للاجابة وفى اليوم المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتى :

هو — إنى مستعد ياسيدى . تفضل .

أنا — أرجو أن تغفر لى لهجة الزهو التى قد تحسها من كلامى

ولا شك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل . أليس الأمر كذلك ؟

هو ــ بلا ريب

أنا ــ والحقيقة انى من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف من الناس لو كلفت نفسك سؤالهم .

هو ــ لا شك عندى فى ذلك يا سيدى (وانحنى لى)

أنا ــ وأنتم معشر الأجانب تشمخون علينا بأنوفكم كأن بلادكم هى وحدها التى تعرف الارستقراطية لأن فيكم من يستطيع أن يعدعشرة أوعشرين من الجدود . ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق . فأنا فى مقدورى أن أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لا عشرة ولا عشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر . ولن تجد اعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخار .

هو ــ أه ؟

أنا ــ نعم يا سيدى فإن جدى الأعلى رجل لا شك عندى فى انك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً .

فبدا عليه الاهتمام ورفع سن القلم على الورقة ومنحنى أذنه ــ واحترامه أيضاً ــ وقال وقد رأى سكوتى ريثما يتم أهبته (انى مصغ) .

أنا ــ وهو لا أقل من آدم نفسه .

فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخيل إلى لحظة إنه سيسقط عن كرسيه عجزاً عن احتمال كل هذا المجد وسرنى أن أرى فعل كلامى فى نفسه ، ولكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد إلى يده فنهضت مثله ومددت له يدى وقد ظننت أنه سيستأذن غير أنه خيب أملى وقال :

فهززت يده سروراً بهذه القربى وقلت :

هو — لى الشرف يا سيدى بأن أقول لك انى أيضاً أمت إلى هذا الشيخ الجليل بسبب ، وتحقيقاً لذلك أقول إن جدتى العليا حواء فنحن أذن قريبان .

فهززت يده سروراً بهذه القربى وقلت :

أنا — لقد سهلت على الأمر جداً فما أظن بك — وانت غصن من هذه الدوحة الفينانة — إلا أنك تعرف كيف كانا فى الجنة وماذا أخرجهما منها وكيف قتل جدى قابيل جدى هابيل وإن كانت الكتب تقول إن أحدهما مات ولم يعقب ولدا ، وأظن جدك القتيل، وغير ذلك من الحوادث البارزة التى لا تزال طبقة ترويها عن طبقة وجيل يتلقفها من جيل إلى يومنا هذا ، فلنمض إلى من هم أقرب إلينا .

هو — ان أسرتنا الكريمة أشهر من أن تحتاج إلى تعريف فأرجو ألا تجشم نفسك . .

فلم يعجبنى أن يحشر نفسه فى أسرتى بعد أن أخرجته منها ونويت ألا أعده — فيما بينى وبين نفسى — إلا من سلالة معاتيق جدى قابيل ، بيد أنى كتمت هذا وقلت مقاطعاً له .

أنا — سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادى الاقربين

لتعرف من أية أيكة كريمة خرج هذا الفرع الذى يتشرف بأن تراه أمامك (انحناء منه ومنى) فنهم مالك بن الريب ابن حوط المازنى وكان زعيما لقومه وبلغ من قوته وسطوته إنه كان هو ورفقاؤه ـ أعنى اتباعه ـ يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاءوا غير أن الخليفة لم يحتمل هذة المنافسة ولم يطق صبرا على هذا المزاحم فطلبه وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها مايستحق أن يؤخذ فتركها للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى حتى أجرى الوالى عليه مبلغاً شهرياً فلم توافقه هذه الحياة الوديعة فمات بعد الكف بقليل .

ومن مشاهيرهم هلال بن الاسعر المازنى كان رجلا فيه فكاهة عملية وكان يحلو له أن يركب الناس بالدعاية فكان يشحذ سيفه القديم ويخرج فى الظلام فإذا مر به أحد شكه بالسيف فى بطنه فيثب ثم يقع على الأرض فيغرب جدى فى الضحك ويذهب إليه ويلاطفه ويخفف عنه حمله ، الا لقد كان مفطورا على الفكاهة .

ومن أكرمهم أيضاً مسعود بن حرشة المازنى كان شديد العطف على الناس والمرثية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا اراحة أخوانه فى الإنسانية من الابل ومما يحملون ولكن حساد فضله وشوا به لعامل الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلقه فى مكان ظاهر فى سوق كبير واتاح له بذلك ان يشرف على الناس ويتأملهم زمنا كافيا .

هو ـ قداقتنعت ياسيدى بأن فرعكم انبل واشرف وبودى لو تسمحون

لى بطائفة قليلة من الأسئلة عن شخصكم الكريم مخافة إن تنسوه فى وسط هذا العباب الطامى من المجد التليد .

فلم ارتح إلى هذه المقاطعة التى لا شك عندى فى ان الحسد هو المغرى بها . كنت اريد ان اغمره بسيل من هذه الحقائق التى ترفع الراس وتطيل القامة غير انى قدرت ان الفرصة لم تضع وانها لا محالة سانحة فقلت له تفضل .

هو — كم عمرك ؟ إذا جاز ان اتقدم إليكم بمثل هذا السؤال .

انا — سيكون فى اغسطس المقبل — فى ٩ اغسطس — عشرين سنة .

هو — كيف ؟ عشرون سنة فقط .

انا ـ نعم ؟ .

هو ـ وهل تسمح لى ان اسألك فى اى سنة ولدت ..

أنا ـ إذا لم تخنى الذاكرة فانى ولدت فى سنة ١٧٩٠ ميلادية .

هو ـ ١٧٩٠ ؟ ؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟

أنا ـ لا أدرى وهذا بعض ما أعجب له ؟ .

هو ـ ألم تقل أن عمرك عشرون سنة ؟ .

أنا ـ نعم .

هو ـ ولكن عمرك ـ إذا حسبناه من تاريخ ميلادك ـ يكون مائة وستا وثلاثين سنة فكيف تعلل هذا التفاوت ؟ .

أنا ـ لا اعلله . وكثيراً ماعجبت له . وإذاكان هناك تفاوت فلاشك ان مرجعه إلى انه فاتنى ان ادون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها .

ورايت فرصتى سانحة فاغتنمتها لأكر إلى مجد اجدادى فقلت .

انا ـ ازيد على ذلك انى ولدت بغير اسنان ، فأنا لهذا افضل كثيرين من الآدميين غير ان هذا حرمنى القوت زمنا طويلا فلبثت لا اطعم غير اللبن وهذا تعليل ضآلة جسمى واضطرارى بسبب ذلك إلى القعود عن المعالى التى كلف بها اجدادى الاماجد من امثال ابن ابى سعيد المازنى . فقد ولد بأسنانه كاملة وكان مبطانا اكولا وخلا عظيما مرهوب الجانب وعرف له الخليفة فضله فاختصه بغرفة فى قصره واقام له عليها اثنين من الحجاب وامرهما إلا يدعاه يجشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وان يقوما هما بخدمته فبقى فى هذا القصر مكرما مبجلا مخدوما تسعة عشر عاما ومنهم ايضاً ابو هلال بن . . .

هو ـ مهلا يا سيدى فان الرجوع إلى هذا معناه الشك فى صدق ما جاهرت به من اقتناعى بكرم محتدك ، فهل تسمح لى بأن اسألك متى اشتغلت بالصحافة ؟ .

انا ـ فى ١٨١٩ .

هو ـ كيف ؟ وعمرك كما تقول دون العشرين ؟

انا ـ لا ادرى ! . وهذا ايضاً بعض ما يحيرنى .

هو ـ ان هذه التواريخ لا امل فى اصلاحها على ما يظهر فلنسأل عن شيء آخر ، هل لك اخوة ؟ .

فاغتنمت هذه الفرصة لاطير له صوابه .

أنا ـ دعني أفكر ، نعم ، كان لى أخ . . . فى الرضاعة .

هو ـ ماذا تعنى ؟

أنا ـ أعنى أنه كان ابن مرضعتى .

هو ـ وهل مات ؟

أنا ـ لا أدرى ؟

هو ـ يتأثر ـ اختنى فلم تسمعوا عنه خبرا ؟

أنا ـ كلا ! بل دفناه .

هو ـ دفنتموه ؟ هل تريد أن تقول أنه دفن دون أن تعلموا أحى هو أم ميت ؟

أنا ـ كلا ! فما من شك فى أنه كان ميتاً .

فضحك وقال : مات ودفن فماذا تريد ؟ أظن أن المسألة واضحة جداً فماذا يحيرك فيها ؟

أنا ـ أتظن أن المسألة واضحة ؟ ربما . أما أنا فأخالفك .

هو ـ لماذا ؟

لأنى لا أدرى إلى هذه الساعة أينا الذى مات أنا أم هو ؟ أفهمت الآن ؟

فانطلق يقهقه كأنما كان فى جوفه رعد مخزون وصبرت عليه حتى فرغت الذخيرة ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة :

«هل تستطيع - إذا قصصت عليك القصة وأفضيت إليك بالسر أن تنبئني عمن يحدثك الآن أهو المازنى أم من كان ينبغى أن يكون خادمه وإن كان أخاه فى الرضاعة؟

فارتبك وبدت عليه دلائل الحـــيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكا ولأطيرن من رأسه هذا الولع بتراجم الناس فقلت ؟

«اسمع يا صاحبى، لقد كان لمراضعتى طفل فى مثل سنى وكان شديد الشبه بى، وكان يلبس من ثيابى فيزيد الأمر بيننا إختلاطاً وما أكثر من كان يتوهم أننا توأمان وكثيراً ما كان يقضى هذا الولد لياليه فى غرفتى على أنه أنا بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة، وهكذا نشأنا، فشببت أنا على أننى المازنى وشب هو على أنه الخادم وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، وما يدرينى ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظئرى وهى تغسلنا فى الحمام؟ ولا أطيل. كبرنا نحن الاثنين، المازنى وخادمه محمد، أو محمد وخادمه المـازنى، فما أدرى الآن أنا من على التحقيق؟ كبرنا إذن وسرق الخادم مرة من الجار فحبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها، وعسى أن يكون المازنى هو الذى سرق وحبس خادمه، ربمـا، ولكن هذا لاقيمة له، فكثيرا ما كنت أنا أخطئ ويضرب خادمى عنى أو بعبارة أخرى ربمـا كانت اصح واقرب إلى الحقيقة، كثيرا ما كان هو يخطئ واضرب انا عنه - هذا إذا ذهبنا نعتبر الخلط الذى لعله اصاب عنوانينا او اسمينا.

هو ـ ارجو المعذرة ، ولكن هل من عادة المصريين ان يضربوا خدمهم إذا اخطأ ابناؤهم ؟

انا ـ لست اعلم ان هذه عادة احد من المصريين ، ولكننى اريك بعض آثار التشابه بينى وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير صاحبه .

هو ـ ولكننى لا افهم . . .

انا ـ ستفهم كل شيء إذا تريثت قليلا ، ولم يقلع الخادم عن السرقة والتلصص ، او لم يكف المازنى عنهما فما يعلم الحقيقة غير الله ومن لعله خلطنى به فى الحمام ونحن طفلان رضيعان . . . فألف الاجرام ، واتفق فى ليلة انه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر إلى السطح على نية الوثوب من سطح الى سطح وهكذا حتى يهتدى الى طريق مأمون للهبوط الى الأرض ، وبينما كان ماشياً على سور احد السطوح زلزلت الأرض فهوى ومات والآن نبئنى إذا استطعت اينا الذى مات ؟ ؟ اهو انا ام هو ؟ اهو المازنى ام خادمه . ؟

هو ـ الم يكن هناك شيء ـ علامة مثلا ـ تميزكما ؟

انا ـ واذا تذكرت ما قصصته عليك عن آبائى وأجدادى الأماجد وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم ، وبعبارة أخرى أخشى اذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتاكا وقطاع طرق ولصوصاً ألا يكون الأقرب الى المعقول والأشبه أن يكون الخادم المتلصص هو المازنى واكون انا الذى وقعت من فوق السطح ومت ؟

هو ـ لا انكر قوة منطقك ولكني اسألك مرة اخرى — الم تكن
م علامة تميزكما ؟

انا ـ هل تحسبنى ابله ؟ وفيم اذن قلت لك ان للمسألة سراً ؟ .

فأبرقت أسارير وجهه ولمع السرور فى عينيه وقال :

لا احسبك تضن على بحل هذا اللغز بعد ان اوجعت راسى بعقده ؟ .

انا ـ كلا ! لقد كان هو اسود زنجياً وانا كما ترى اسمر ؟ ؟

فنهض وانحنى وقال : « اشكرك » .

ولم ار بعد ذلك وجهه .

اللغة العربية بلا معلم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها، من وراء الزجاج فأخذت عيني كتيبا صغيراً يعلم الأجانب (اللغة العربية بلا معلم) فراعتني هذه الجراة، وتمثل لخاطري ما يكابده الأساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة، بل ما نعانيه نحن الذين نزعم أنفسنا أدباء وشعراء من البرح والجهد ولا أطيل — اشتريت الكتاب بثمن باهظ ثم انتحيت ركنا في قهوة ورحت أقلبه فإذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الانجليزية وما يقابلها باللغة العربية، فتحسرت على ما بذلت فيه، وساءلت نفسي — ماذا أصنع به؟ كيف أعوض خسارتي؟.

والله أكرم من أن يضيع على فقير مثلي ماله إذا صح أن تسمى القروش مالا. فألهمني أن انتزع منه متعة لا أظن مصريا غيري حلم بها أو طمع فيها. ذلك اني فرضت - جدلا - اني (مالطي) واتخذت هذا الكتاب مرشداً لي وقلت أتقيد بجمله وعباراته في المحادثات التي اضطر إليها في تجوالي في المدينة.

ولما كنت (سائحاً) وشوارع المدينة متداخلة تضل الغريب فقد وجب - طبقاً لمشورة الكتاب - ان أركب (عربة) وإن احتمل هذا الترف الضروري، ففتحت الصفحة الثانيه عشرة حيث الحديث مع سائق

العربة ودنوت من (الموقف) واشرت بعصاً اشتريتها خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة وصحت بلسان ملتو (أربجى) فالهب السائق جواديه وعدا إلى بهما ، فلما صار عندى عدت إلى الكتاب استوحيه الجملة الثانية التى ينبغى أن تتلو النداء، ثم رفعت إليه رأسى وقلت « روه هات أربه » .

فكانى لطمت الرجل على وجهه . فانطلق يمطرنى وابلا من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض إذ كنت غريباً عن هذه الديار ولكنى تبينت من لهجة الرجل وإشاراته إن المعانى جميلة جداً وإن جملتى راقته كما لم يرقه شئ فى حياته .

وعدت إلى الكتاب استمليه الجملة الثالثة لعلها تحل الأشكال فقلت :

« يا أربجى انت فاضى ؟ »

فرمانى بنظرة مغيظ محنق لم أدر ما مسوغها ، ثم رفع طرفه وكفه إلى السماء ، ثم صاح بالناس فالتف حولى منهم اثنان كلمنى أحدهما بالفرنسية فهززت له رأسى فخاطبنى باليونانية ، فظللت أهز له رأسى، فجرب الثانى الايطالية فأشرت له بأصبعى أن لا. وخفت أن يطول الأمر فرددت عليه بالانجليزية فاستغرب وجعل يرفعنى ويخفضنى بعينه. وأوجز فأقول - انى حسما للنزاع ركبت وقلت للسائق - بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب - طيب اذهب بى إلى المحطة » .

فانطلقت العربة ، وبديهى انى كنت أؤثر مكانا آخر ولكنى كنت مقيداً بالكتاب ، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به - نقلا عن مرشدى - « كم تريد أجرة لك » .

وكان ينبغي أن يقول ـ طبقا للكتاب ـ «واحد شلن» ولكنه طلب نصف ريال فدهشت وبحثت فى غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فألفيته ١٩٢٦ ، فقلت لنفسى لعل الأجور ارتفعت فى هذا البلد بعد صدور الكتاب ، وكان على أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت : « لا هذا كثير»

وكان ينبغي-على ما رسم الكتاب أن يكون رده على ملاحظتى « كما فى التعريفة » غير إنه بدلا من أن يفعل ذلك مضى يشتمنى ويسبنى ويلعن لى أبائى وجدودى وهو آمن مطمئن إلى جهلى بلغته البذيئة على الأقل . فلم أر مناصا من أن أعد لعناته مرادفة للرد الواجب ونقلت له من الكتاب « ستة كروش أبيض بس »

فحصبنى بملء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال : « هات بق » .

ففهمت هات لأنها من الكتاب وتجاوزت عن « بق » على اعتبار أنها على الأرجح كلمة شكر أو دعاء وناولته القروش الستة البيضاء . وإذا به يثب إلى الأرض ويجذبنى من جيب سترتى ويصب على من السباب ما يكفى شعباً بأسره جيلا كاملا . فما أشد اسرافه قاتله الله. وتنازعنى الضحك والغضب والخوف ، ولكننى ضبطت عواطفى وصوبت عينى إلى الكتاب ثم رفعت له وجهى وقلت : « وذينى « الكشلة »(١) .

فقال « القشلة ؟ ياخبر أسود يا ناس. تعالوا انظروا هذا يريد أن يدعى

---

(١) القشلة عامية ومعناها المستشفى .ولا تكاد تذكر الا مقرونة فى الذهن باليأس من حياة المريض .

انى كسرته . . . » وهكذا وهكذا مما يستطيع القارئ أن يتصوره ولا حاجة بنا الى وصفه .

ولم أدع أنا شيئاً من هذا ، ولا خطر لى ان افعل ، ولكنه الكتاب استوجب منى أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملنى إلى المحطة ولا موجب لهذا ولا ذاك ولكن هكذا شاء فكان ما اراد فرايت الأحزم إن انتقل إلى الجملة التى تلى « القشلة » فقلت «طيب اعمل فسحه فى البلد » .

فلم يدر ايشتم ام يضحك . وبعد ان تأملنى قليلا قال :

« يابن . . من القشلة للفسحة ؟ »

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت انا اترجل. فالتفت إلى مذهولا، فانقدته القروش العشرة وقلت له « لا مؤاخذة لقد كنت امزح » فحار كيف يعتذر عن شتائمه ولعناته . .

سأجرب فضل الكتاب فى نزوة اخرى استخلاصاً لحق.

أشق المحادثات

•

محادثة الصم أشق شيء بعد محادثة النساء . إذا صح أن الرجل يتحدث أو تتاح له فرصة الكلام وهناك امرأة . والفرق بين الحالتين ـ أعني بين محادثة الصم ومحادثة النساء ـ أن المرء فى الحالة الثانية لا يزال يفتح فمه ، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة ، ولكنه فيما أعلم لا يجاوز التأتأة أو الفأفأة أو غير هذه وتلك مما هو منهما بسبيل، ولا يكاد يزيد على « أ أ أ » ثم لا يرى معدى عن اطباق فمه ، وهكذا فلو أتيح لك أن تراه وهو يفتح فمه ثم يطبقه مرة بعد أخرى ـ دون أن تعلم أن هناك امرأة تنحدر كالسيل ـ لظننته يتثاءب من فرط الملل والوحدة ، وشر ما فى الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستهجنه منه أو تعده دليلا على أن فى نفسه شيئاً من ناحيتها . وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لأية سيدة محترمة أن علة صمته إنما هي لا تكف عن الثرثرة . كلا هذا لا سبيل اليه فان عاقبته أوخم ، فهى ورطة كما ترى لا مخرج منها .

فرص الكلام معدومة أو هى فى حكم المعدومة ، والمصارحة مستحيلة والصبر على اللوم والتأنيب والاتهام عسير ، فماذا يصنع المرء ؟ توهمت

مرة أنى اهتديت إلى تعليل للصمت المفروض على والمستهجن منى فى وقت معا . فقلت لمن كانت تلومنى :

« ألا تعلمين إنى مدرس ؟ »

قالت : « وما دخل هذا ؟ »

قلت : « إذا أكثرت من العمل بيديك ألا تتعبان ؟ »

قالت : « نعم ذلك .. »

قلت : « وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك ؟ »

قالت : « هذا صحيح ولكن .. »

قلت : « تمهلى، وإذا تعبت يداك أو رجلاك فكيف تريحينهما؟»

قالت : « بالكف عن العمل أو المشى »

قالت : انتهينا . أنا مدرس وليس لى من عمل طول النهار إلا إدارة لسانى فى حلق ، فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق الذى بذله »

فاقتنعت يومئذ ، وبعد بضعة أيام كنت جالساً معها ، صامتاً كما هو مفهوم بالبداهة فدنت منى وقالت :

« اللسان يتعب ؟ اليس كذلك ؟ »

فأدركت أن وراء هذا السؤال أمرا ، وقلت :

« نعم . شأنه شأن كل عضو آخر »

قالت : « فما لفلانه المعلمة لا تكف عن الكلام في ليل أو نهار ؟ »

والخلاصة انني اشك في ان آدم هو الذي سمى الأشياء . وما اظن إلا ان حواء هي التي يرجع اليها الفضل في ذلك ، فما احسبها تركت له فرصة يفتح فيها فمه ولا سيما إذا ذكرنا ان آدم كان الإنسان الوحيد الذي كانت تستطيع ان تكلمه في الجنة ، وانه لم يكن معها سواه فكيف استطاع ان يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان والنبات من الأسماء؟ بل ما اظن ان آدم قد اكل من الشجرة المحرمة لأن حواء اغرته او لأن الشيطان وسعه ان يزين ذلك له ، بل لأن الأكل من هذه الشجرة له عواقبه ، ومنها الموت وانتفاء الخلود وتلك وسيلة للخلاص يمكن ارتقابها مع الصبر. فما اعظمها من تضحية يجب ان نذكرها لأبينا الشيخ المسكين !

●

اما محادثة الصم فشيء آخر مختلف جدا . هي صياح من جانب وبعثرة من الجانب الآخر ، واعني بعثرة المواضيع التي يمكن ان يدور عليها الحديث زمناً معقولا إذ لاسبيل إلى حصر الذهنين في موضوع واحد وقتله ـ اعني قتل الموضوع ـ ولنضرب مثلا :

تضع يدك إلى جانب فمك وتصيح في اذن صاحبك .

« متى اشتريت هذه النظارة »

فينظر اليك اولا كأنما يريد ان يقرأ في عينك او في وجهك كله ما سمع ثم يقول بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب انه يصيح مثلك « أى نعم وزارة المعارف »

فتصيح مرة اخرى وتصنع من كلتا يديك بوقا لأذنه

« النظارة . النظارة . انا اسأل عن النظارة »

فيقول « آه . ربما . ربما . فان الازمة حقيقة حادة »

ويخطر لك ان تغير الحديث فتصب هذه الصيحة فى اذنه او تطلقها فى الهواء ـ سيان .

« هل قرات مقالتى الأخيرة ؟ »

فيقول « لعنة الله عليها لقد كادت تخنقنى . وقد غشنى من مدحها لى »

فتبدى امارات الدهشة وتلعنه بصوت عادى فيقول :

« لا تعجب فأنها جهة مشبعة بالرطوبة والبعوض فيها كالنحل كلا . لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل إلى جهة اخرى »

وهكذا . تنتقل من موضوع إلى موضوع بلا فائدة حتى يبح صوتك . والنساء شر لابد منه وكثير ما تنسيك حلاوته مرارته ولكن المرأة الصماء .. ؟ هنا يحسن السكوت .

من ذكريات الصبا — بين رجال الليل

•

وقعت مرة على عصبة من اللصوص ، وكنت فى ذلك الوقت صبياً فى الثالثة عشرة من عمرى الذى أراه ينوى أن يطول بلا مسوغ ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الأمام عن طريق الصحراء الفاصلة بينهما ، وكان الليل قد أمسى وانتشر الظلام على الأرض، ولم يكن شارع « كتشنر »[1] قد شق وعبد فكان السارى لايجد ما يهدى به فى هذه البيداء المبسطة سوى النجوم إذا كان ممن يستطيعون أن يميزوا بينها. وكنت أعرف من الكتب أن هناك « دبين » واحد منهما أكبر من زميله ولكنى لم أوفق إلى رؤيتهما فى هـــذا التيه السماوى إلا منذ عهد قريب، وكان شكى يومئذ فى وجودهما عظيما ، ولكنه شك لم اكن أدعه يند عن صدرى إلى لسانى ولا سيما إذا كان أحد من المدرسين حاضراً ، تلك جرأة كنت قد تعلمت ضبطها وكتمانها بعد أن جرت على مالا أزال — كلما تذكرت — أرى يدى ترتفع إلى خدى . وشرح ذلك إنا كنا نطالع كتابا نسيت اسمه ، فمرت بنا هذه الجملة المشهورة « أن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه» وأخذ المدرس يضرب الأمثال ،

---

(١) شارع ممهد من الأمام الليث قريبا من «عين الصيرة » إلى مسجد عمرو ويمر بمدينة الفسطاط التى كشف عنها حديثنا .

فكبر فى عينى هذا « المضطر » الذى يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا الصعب « ويتعمد ذلك » ولا يعبأ شيئاً بالأهوال التى يقذف بنفسه عليها وأعجبتنى هذه الشجاعة وملأت نفسى إجلالا له ، فاشتقت أن أراه وعانيت من الحاح هذا الشوق أشد البرح ، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت فى شغل عنه بتصور « المضطر » وتمثل « الصعب » الذى يركب — حتى وثبت عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان :

« أفندى ! . أفندى ! » .

فتغاضى المدرس عن مخالفتى للأصول المرعية وقال لى وعلى فمه ابتسامة الراضى عن نفسه المطمئن إلى بلوغ غايته من الايضاح والبيان .

« نعم ياعبد القادر ؟ »

فجازيته ابتساما بابتسام ولم أكن أقل منه رضا عن نفسى وفرحا بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة ، واغتباطاً بشجاعة النهوض بلا استئذان للأعراب عنها فقلت :

« أين يعيش المضطر ؟ » .

فتجهم وجهه وانزوى ما بين عينيه وطالعتنى أمارات غضب حسبتها دلائل حيرة ، فاسفت لتقدمى بهذا السؤال واحراجى أياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسى : أن معلمنا هذا معذور إذا جهل مكان « المضطر » واستعصى عليه الجواب ، وإنى له أن يعرف — وهو رجل عادى — ذلك « المضطر » الذى لايبالى بالصعب ويأبى إلا أن يركبه ؟ ؟ وانتبهت

من هذه المناجاة ، التى يظهر أنها طالت أكثر مما ينبغى ، على التلاميذ يدفعوننى وعلى المدرس يصيح بى .

« أقول لك تعال هنا ، ألا تسمع ؟ » .

فلم ادع الابتسام وذهبت إليه وأنا أقول لنفسى « سيعاتبنى الآن على تسرعى وعدم انتظارى انتهاء الدرس لأسأله على انفراد وسيهمس فى أذنى عتابه فأهمس فى أذنه اعتذارى وانتظر » .

« ماذا تقول ؟ » بصوت عال .

ولم يكن هذا ماتوقعه فارتبكت ، وحدثت نفسى أن هذا مأزق ظريف . أرجو أن أنقذ الرجل وبأبى هو إلا أن يغرق ، ورفعت له وجها يستطيع أن يقرأ فيه إذا لم يكن أعمى ، أنى آسف وأنى مدرك خطئى وكان عليه أن يخفض صوته قليلا ، ولكنه لم يحفل رجائى وتوسلى فصرخ مرة أخرى :

« ماذا تقول ؟ أجب » .

فالتفت إلى التلاميذ كالذى يريدان يقول — أتسمعون هذا المجنون؟ لست ملوما إذن وأنتم شهودى . ولكنى لم أكد أرد وجهى إليه حتى خطر لى كوميض البرق انه لعله لم يسمع سؤالى فهو يجهل مداه ومبلغ ما تنطوى عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ . واستولى على هـذا الخاطر فسرنى أن فرصة الانقاذ لم تضع ، فشببت عن الأرض ورأيت يمناى تمتد إلى كتفه لتدنو باذنه إلى فمى ، وإذا بى على الأرض

أقيسها إلى آخر الفصل دائراً حول نفسي ومتخذاً رأسي محوراً ، وقعدت أبكي وبي من الغيظ والحقد أكثر مما بي من الألم ، ولكن المدرس كان قد لحق بي فكتمت الغيظ ورفعت طبقة البكاء فجأة حتى صار اعوالا ، فجعل يصيح بي .

« اخرس يا كلب اخرس . اقول لك اخرس » .

ويشفع كل كلمة بلطمة او لكمة فأزداد اعوالا .

ويظهر ان هذا الصخب نبه « الناظر » — وكانت غرفته قريبة منا — فدخل علينا ورأى المدرس متلبسا بجريمة الضرب — وهي محرمة — وكان الناظر رجلا طيبا ساذجا يخرج الكلام من انفه اخن اغن ممطوطا لينا ، وكان صديقا لأبي — اعني قبل موته — وحديث عهد بالبكوية ، وكانت لي عليه دالة بفضل تملق «بكويته» لا بفضل صداقته لأبي — وكان التلاميذ يعرفون لي هذه الدالة فاذا ارادوا شيئا بعثوا بي إليه . اوفدوني إليه مره فقلت .

« يا سعادة إلبك . نريد ان تاذن سعادتك لنا في الذهاب إلى حديقة الحيوانات » فاعتدل في مقعده وهز راسه وهو يقول .

« حونات . حونات ايه يا امني . اسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبق نقول يامين ؟ ؟ يا امني عبد القادر لا »

فاقتنعت وأقتنع التلاميذ بإن الذهاب إلى حديقة الحيوانات خطر ليس بعده خطر . ولا أذكر أني دخلتها إلا بعد أن صرت مدرسا في المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها ، وإلا بعد أن تحققت أن الأسود

تحبس فى اقفاص ولا تربط بالسلاسل — أن صح أنها كانت تربط — كما كان الحال على عهد ناظرنا طيب القلب . . .

وأعود إلى «المضطر» وقصتى معه فأقول بإيجاز ؛ أن المدرس على الرغم من أعتدائه على وعلى القانون ممثلا فى شخصى المحطم المجرح زعم انى هيمت بصفعه . يا للكذب ! . وأصر على وجوب طردى من المدرسة . ولم تجدنى دموعى ولا ما أقسمت من الإيمان على أنى لم أرتكب هذه الجريمة التى لم تخطر لى على بال قط ، وأنى ما أردت إلا الاستفسار عن مكان « المضطر » لآراه ، وشهد التلاميذ اللاعين أنى رفعت يدى إلى كتف المعلم ، فأيقنت أنى ضائع لا محالة ويئست فكففت عن البكاء ، وقلت : «أتلقى هذا الظلم بما يستحقه من الاشمئزاز والاحتقار.» وجرنى الناظر معه إلى غرفته وشرع يسألنى فى هدوء وعطف فسردت عليه القصة على حقيقتها ورأيت فرصتى سانحة فاغتنمتها وأكثرت من « سعادة البك » وأضفت من عندى كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبى، وأبى كما يعلم سعادة إلبك الناظر ميت . وفعل التملق والأكذوبة فعلهما الذى توقعت فنهض سعادة ألبك وقال لى بصوت خفيض « أسمع ياأمنى أطردك من باب تيجى من باب . فاهم ؟ . »

قلت « نعم يا سعادة البك » فتركنى وخرج وأسر شيئا إلى فراش بينما كنت أتوثب فى الغرفة وأطوى يدى ورجلى فى الهواء من فرط الفرح، ثم نادانى فخرجت وبعد قليل حضر المدرس أيضاً فمضى بنا جميعاً إلى الباب الكبير —وكان هناك باب آخر — وقال : ؟

« يا عم محمد . افتح البوابة . أخرج من مدرستى . أمش من هنا . مبسوط بقى يا عم الشيخ . . . ؟» هذا للمدرس .

ولا يحتاج القارئ أن أقول له انى درت ودخلت المدرسة من الباب الثانى وأن المدرس وجدنى جالسا على درجى فى اليوم التالى ولكن القارئ قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد إلى الشكوى فقال له الناظر: « وماذا أعمل إذا كان هؤلاء الأولاد كالعفاريت ربما كان قد هبط إلى فناء المدرسة من فوق سطوح الجيران » .

والآن إلى اللصوص بعد هذا الاستطراد الطويل الذى دعت إليه المناسبة العارضة : مناسبة الذكرى الاليمة .

لم أزل أغرس قدمى فى الرمال واقتلعها — فما يسمى المشى فى هذه الصحراء مشيا إلا على المجاز — حتى دنوت من عين الصيرة (١) فابصرت اشباحا على ضوء نار ، وكان الليل دامسا فلم استطع أن أكون على يقين من مكان القوم ، وخفت ان أنا مضيت فى طريقى أن اقع عليهم وأنا لا أعرف أى ناس هم ، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجدباء من الأرض مأوى اللصوص وعش الفتاك ، فقلت أميل عن الطريق حتى أبلغ « عين الصيرة » فأنحدر إليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشراً أذنى فى الليل المحيط مرهفا سمعى لكل صوت ونأمة عسى أن افلت ، فإذا تعذر

---

(١) عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود .

الافلات عدت فوسعت الدائرة . فلما كاد رأسي يبلغ مستوى الطريق المشرف على (العين) إذا بالقوم تحت عيني .

فأسرعت ورددت رأسي وتواريت خلف الصخرة التي كانوا جالسين اليها من الناحية الأخرى . وجلست أفكر وقد شاع في الرعب وكادت عيناي تخرجان . غير أني لم البث أن سمعتهم يغنون ويتضاحكون فعاد إلى بعض ماعزب من الطمأنينة ، وتشجعت فدنوت من حرف الصخرة وجعلت أبرز من وجهي بقدر وأخفي بقدر ، فالفيتهم على بضعة أمتار — نحو عشرة ، منهم الضخم الهائل الانحاء والطويل والهزيل والقصير والبدين وكان أحدهم يغني والباقون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون عليه ويركبونه بالذع أنواع المجون . ويظهر أن هذا استفزه واحنقه فانتفض عن الأرض ومضى يلعنهم ويقذفهم باقبح النعوت فهموا به جميعاً ولكن رجلا ضخماً من بينهم حسبته فيلا صغيرا صدهم وأهاب بهم أن (دعوه لي فانه طعامي الليلة)

فسرت رعدة خفيفة في بدني ومططت وجهي لعلي أرى ذيله وراءه . وتناول الرجل عصا غليظة تبلغ المترين أو قراب ذلك وجعل يتوثب في الهواء ويلوح بها في كل ناحية ويهوي بها على الرءوس حتى اذا كاد يطيرها عن اكتافها أو يحطمها حرك يده فمرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول (فووو) والرجل يقول في أثناء ذلك كلاما كهذا ـ دعوه لي . أنه طعامي ! ألاترونني ؟ انظروا إلى وراعوني أني أنا الذي يسمونه الموت الوحي والخراب العاجل ! أمي العاصفة وأبي الزلزال وأختي الكوليرا

أنظروا إلى وراعونى . انى أفطر بقافلة وبرميل من البلح[1] وإذا مرضت كان حسي ملء سلة من الافاعى . افتت الصخر بنظرة وأخرس الرعد بصيحة . وسعوا لى وسعوا لى. الدماء شرابى وانين القتلى موسيقاى . انظروا إلى وراعونى وعلقوا أنفاسكم فانى موشك أن انطلق »

فعلقت أنا أنفاسى وقد ملأ الرعب والاعجاب والسرور قلبى - الرعب مما سمعت ورأيت ، والاعجاب بقوته وحذقه ، والسرور بما أنا موشك أن أراه بين المتنازلين ، وحدثت نفسى أنى ساشهد منظرا لن انساه ماحييت ،منظراً ينطوى — من دواعى الاعجاب والاجلال - على أعظم وأهول مما ينطوى عليه ركوب ذلك (المضطر) للصعب من الأمور

ثم نهض الذى كان يغنى وكانوا يسخرون منه ، وفى يده (نبوته) لا كما ننهض نحن أبناء آدم ، بل كما يطير النسر عن الصخرة ، وهوى على نبوته قائما على الأرض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه فى الفضاء طلبا للاتزان ، ثم وثب بين صيحات الاعجاب وانطلق يضرب فى الهواء بنبوته كما صنــــع زميله ، ويقول كلاما كهذا :

« احنوا ظهوركم لركوبى ولاتنظروا إلى بعيونـكم فتذهلوا أنى احك جلد رأسى بالبرق،وانيم نفسى بالرعد ، وأروح على وجهى بالعواصف ، وإذا ظمئت مصصت السحاب وإذا جعت سار القحط فى ركابى . واتقوا أن تنظروا إلى فتبهتوا !! انى أحجب الشمس بكفى واقد من القمر قطعة فينتهى الشهر ، وارتج فتندك الجبال : احنوا الظهور لابى الخوارق ! »

---

(١) شراب يسكر يصنعونه من البلح

فصارت روحي فى فمي . ونهض الأول وذهبا يتوثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشيطان ويتسابان، بأوجع الكلام حتى غلى الدم فى رأسى أنا ، وأيقنت أن الدماء ستكون أمامى بركة . ثم طير الأول عمامة الثانى بنبوته فقلت قد صرنا إلى الجد الرائع فالتقطها الثانى بنبوته أيضا ـ وضرب عمامة الأول فأطارها عن رأسه فوقعت قريبا منى، فجرى الاول فى أثرها وتناولها وقال « لا بأس » دقة بدقة والبادى أظلم ، ولكن هذا لن يكون آخر ما بيننا فخير لك أن تكون على حذر وأن تجنب طريقى فإنى لا أصفح ولا أرحم وسيأتى اليوم الذى تكفر فيه عن ذلك بدمك »

فقال الثانى ـ أبو الخوارق ـ أنه مستعد لذلك اليوم وأنه ينذر الأول من الآن ، فانه لن يستريح ولن يهدأ له بال الا اذا خاض برجليه فى دمه، وأنه يدعه الآن اكراما لأولاده الصغار. وهم كلاهما ان يذهب فى طريق وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم ، ولكن رجلا قمىء الجسم بالقياس إلى هذين الفيلين قفز وصاح بهما: ـ

« قفا لعنة الله عليكما من جبانين ، وإلا اطعمتكما هذه العصى » .

ولم يكذب فقد جذب كلا منهما بذراع ، جوبه ، اطعمه التراب ثم اوسعهما ركلا برجليه حتى اشبعهما تمريغاً وضربا ، ولم تمض دقائق حتى انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه .فدوى الفضاء بضحكات الجالسين وتهكماتهم وعانيت الأمرين من كتمان الضحك .

وبدا لى ان قد آن ان افكر فى الرجوع والهروب من هذه الجيرة

ولكن احد الذليلين . واحسبه ابا الخوارق قام ليغسل وجهه ويديه فى العين فرانى فوقف وصاح « هوا من هذا ؟ ؟ ووثب الباقون فكانوا حولى فى اسرع من لمح البصر ، وقبل ان افكر فى جواب . وتصايحوا بى فقال الاول :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ قل والا أغرقناك فى العين

وقال الآخر :ـ

ـ شدوا رجليه ومزقوه !

وقال ثالث :

ـ لص بطربوش !ها ها ! تعال نعلمك : هاتوا الفرشاه لندهن له وجهه باللون الأزرق السماوى من فرعه إلى قدمه

فضحكوا جميعا وقالوا « فكرة بديعة غير ان الرجل القمىء الذى مرغ الفيلين فى التراب صدهم جميعا وقال :

ـ انه ليس الا طفلا ؟ ارفعوا عنه ايديكم ! ويمينا لادفنن من يلمسه .

فوضع احدهم الجردل وترك الفرشاة تهوى إلى الأرض وتتعفر بترابها وقال المنقذ :

ـ تعال إلى النور لنرى ماذا جاء بك إلى هنا ، اقعد ! كم لك هنا؟

قلت : «دقيقة واحدة . »

قال : « ما اسمك ؟ »

ولا ادرى لماذا لم اقل اسمي ولا لماذا أجرى لساني بما جرى به ولكن الذى ادريه انى قلت بلهجة الجاد « ابو الخوارق »

فانفجر القوم ضاحكين ما عدا سمي الذى استعرت منه هذه الكناية ويظهر ان هذا راق منقذى. فقال : « هذا حسن ولم اكن انتظره من طفل مثلك .. ولكنك ياصاحبي كذبت على حين قلت انك هنا منذ دقيقة فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء »

فأخبرته الحقيقة وتعمدت ـ وقد اطمأنت نفسى لهذا الوعد ـ أن ما سمعت ورأيت من الفحلين الجبانين اللذين مرغهما منقذى فى التراب ، لأن احدهما هو الذى توعدنى بالإغراق وثانيهما هو الذى أراد أن يدهننى . وهكذا انتقمت لنفسى وأدخلت السرور على نفس منقذى ، فرافقنى إلى أول الطريق المأنوس ثم أطلقنى فمضيت أعدو إلى البيت !

وكان هذا أول عهدى (برجال الليل) .

أبو الهول وتمثال مختار

•

رأيت تمثال «مختار» كما لم يره غيري . ولست أعنى أنى دخلت فى جوفه ، أو صعدت إليه ، وركبت أبا هوله ، أو نظرت إليه بأربع عيون ، ولكنما أعنى أنى لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع إليه عينى حتى أحسست طفيلياً إلى جانبي يتأبط ذراعى، كأنما كنت أعرفه قبل أن يولد ، ويقول لى أن صانعه « مختار محمد مختار» . . فصرفت نظرى عن التمثال وانصرفت إلى هذا الذى اختار أن يكون صديق دفعة واحدة وآثرنى على غيرى من الواقفين بصحبته وراقنى الموقف جداً ، وقلت له وأنا ألحصه بعينى وأبحث فى وجهه عبثاً عن مخايل «النشالين» .

ـ سبحان الله . أصحيح ما تقول ؟

قال : وهل أنا أكذب عليك ؟ سل من شئت من الواقفين .

قلت وقد زاد اغتباطى بالموقف :

ـ استغفر الله . فما أعرفك كذبت قبل اليوم .

وخطر لى أن أستخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة فقلت :

ـ معذرة ، ولكن صاحبه عبد الغفار ، هل . . .

فقال بلهجة من يريد أن يدركنى لينقذنى :

ـ لا لا لا .مختار .. مختار محمد مختار.

ـ معذرة مرة أخرى ـ مختار ـ وهل هو صاحبه ؟

قال : نعم .

فقلت : ومن أين اشتراه ؟

قال : اشتراه ؟ إنه هو الذى نحته .

قلت : وهل كان هنا جبل نحته منه ؟

فضحك ملء شدقيه ثم قال :

ـ جبل ؟ أى جبل ؟ ألست من أهل القاهرة ؟

قلت : كلا إنى من الريف . وهذا أول يوم لى فى القاهرة .

فزال عجبه ولم يسرنى أن أراه يضحك منى أنا الذى يريد أن يضحك منه ، غير أنه لم يسعنى أن أتراجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى، ورددت الحديث إلى مختار فسألته :

ـ وهل مختار هذا من قدماء المصريين؟ أقول هل — معذرة إذا كنت غلطت فى اسمه مرة أخرى — ولكن هل هو — أعنى صاحب التمثال — من قدماء المصريين ؟

فافتر فمه عن ابتسامة عطف على كتلة الجهل المجسد الذى كان يتأبطه واستل ذراعه، فحمدت الله ووقف أمامى يتأملنى وقد شك فى أمرى على ما أظن ،وتوقعت أنا أن أنفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا ما لا تحمد ـ أو ما لا أحمد أنا على الأقل ـ عقباه .

فأشرت إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفى على القاعدة وسألته : ماهذا ؟

قال : ألاتستطيع أن تقرأ ؟

قلت : أقرأ ؟ وهل هذه كتابة ؟

قال : نعم ، وماذا كنت تظنها ؟ إنها اسم التمثال ـ نهضة مصر .

قلت ـ وتجهمت له ـ اسمع يا صاحبى . لا يليق بك أن تغشنى .

فراح يقسم باللهأن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف بأصبعه . فقلت :

ـ وهل هذا خط (عبد الغفار . . لا لا . . مختار . أليس كذلك ؟) إن خطه قبيح جداً . إن أبلد تلميذ فى بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط ألف مرة .

وأحسبنى حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعثم ، وسرنى جداً أن أشهد ارتباكه ، وأقسمت لأمطرنه وابلا من هذه المدهشات، فلم أمهله ريثما يفكر فى جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقفة إلى جانب أبى الهول :

ـ وهل تعرف هذه السيدة ؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة :

ـ نعم . لا . إنها من التمثال .

فقلت : شيء جميل والله . وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه السيدة هنا ؟

فحملق فى وجهى ولم يفهم وضـــاعت النكتة ، واحتجت إلى سؤال آخر فقلت :

ـ وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا ؟

ففتح الله عليه بهذا :

ـ ياأخى هذه ليست سيدة . إنها حجر . تمثال . ألاتفهم ؟

فقلت : فهمت . فهمت ولكن أتظل هكذا ؟ ألا تتعب ؟

فقال ـ ودق كفاً بكف ـ كيف تتعب ؟ ألم أقل لك انها حجر؟

قلت : آه صحيح . وأى حيوان هذا الذى بجانبها ؟

قال : حيوان ؟ هذا ابو الهول ينهض .

قلت : وهل كان راقداً قبل الآن ؟

فخيل إلى أنه سيدعنى ويجرى ، ولكننى كنت واهماً فقد ثبت وكان أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض ـ وفى تؤدة ـ :

ـ اسمع . ألم أقل لك أن اسم التمثال نهضة مصر ؟ اجبنى .

قاطعته وأجبته ان نعم .

فقال: فهذا ابو الهول ينهض . يعنى أن مصر تنهض . أفهمت الآن ؟

قلت : بودى أن اكون فهمت حتى لا اتعبك . ولكن اين مصر هنا؟

قال : ابو الهول يا اخى

قلت : وماهذه السيدة الواقفة بجانبه ؟

قال : مصر .

قلت : هل هما مصران ؟

قال : سبحان الله العظيم . لا يا اخى .

قلت : لا تؤاخذنى . ولكنك افهمتنى ان ابا الهول هو مصر وإن السيدة هى مصر وقد تعلمت ان واحداً وواحداً اثنان .

قال: لا لا . إنهذا ليس حساباً . إن هذه مصر تنهض أبا الهول

قلت : اليس معنى ذلك ان مصر تنهض مصراً ؟

قال : لقد بدأت تفهم . هذا هو المعنى .

قلت : ولكننى - ولا مؤاخذة - لم افهم .

قال - وهو مغيظ - كيف لم تفهم ؟

وبدا لى أن فى حديثنا من الجد اكثر من المقدار الذى يحتمله هو ، فعدت إلى التباله وسألته :

- ولكننى لا ارى الهرم هنا فهل نقله مختار؟

قال : نقله كيف ؟ اين أنت من الهرم ؟

قلت : هكذا قرأت فى الكتب ان الهرم إلى جانبه ابو الهول فأين ذهب الهرم ؟

ويظهر ان نقل الهرم كان اكثر مما يطيق . فلوح بيده فى وجهى ، وتمتم شيئاً لم افهمه لأنى شغلت بنظارتى التى هوت إلى الأرض وتكسرت عدستها واولانى ظهره ومضى .

●

بعد هذا الحديث الذى استطلته والذى شغلنى عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغى ، مضيت إلى أهرام الفراعنة ، فلما سرت عند أبي الهول وددت لو أن صاحبنا معى . إذن لسألته من صنع هذا ؟ أهو مختار أيضاً ؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامى — تحت أنفى — ويقول؛ لا يا أخى. الفراعنـــة .

فأعود أسأله .

ـ وهل هم أحياء ؟

فيستعيذ بالله من هذا الجهل المطبق ويقول .

ـ أحياء كيف ؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين .

فأبدى له العجب من أن يكونوا أمواتا كل هـذه الآلاف السنين أسأله .

ـ وبأى شىء ماتوا ؟

فيقول : لا أدرى . لا يدرى أحد .

فأكر عليه بقولى .

ـ أتظن أنهم ماتوا بالطاعون ؟

فيقول ـ لا أدرى . ربمـا . من يدرى ؟

فألح عليه وأقول :

ـ أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا ؟

فيقول بلهجة السأمان ـ ربما ، ربما ؛ قلت لك لا أدرى فلا أدعه ولا أرحه وأقول :

ـ أو لعلهم ماتوا حسرة ؟

فيقول ـ وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر ؟ ؛ ربما ، قلت لك ألف مرة لا أدرى ، ماتوا والسلام .

فازداد عليه شدة واسأله :

ـ وأبناء الفراعنة ألا يزالون أحياء ؟

فينقذنى بلفظة (منبستحيل) ويعض حروفها بأسنانه ، فلا يردعنى هذا وأسأله عن أبي الهول واين القاعدة واين ابو الهول ؟

فيعود إلى كفيه يدق احداهما بالأخرى ،وبعد أن يقضى مأربه ويرفه عن نفسه يبينهما لى فأقول :

« ما أوقره ، وأشد سكونه ـ وهل هو . . . هل هو ميت ؟ »

فيهيج برهة ثم يبين لى أنه حجر ، أو لايستطيع معى صبراً فيلوح بذراعه ويمضى عنى .

●

كلا ، تمثال مختار ـ « محمود » مختار ـ على براعته لا شيء حين يقيسه المرء إلى ابى الهول الفرعونى ، فان على هذا الوجه من الكآبة والجد والتشوف والصبر والجلال والنبل ، ما ليس له شبه فى وجه الانسان ـ وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر ، ينظر إلى الدنيا

حوله ولكن نظرته تتخطاها إلى الفراغ الذى يلفها فى طياته ، وتتطلع اليه فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضى متجاوزاً محيط الزمن وأمواج أجياله وقرونه، أو متراجعاً بها ومطبقاً بعضها على بعض ،حتى تعود وقد امتزجت وأضت مدا واحداً عند أفق القدم ـ نعم يفكر ابوالهول هذا ، فى الحروب التى دارت أرحاؤها فى الأزمنة الغابرة ، وفى الدول التى شهد قيامها وسقوطها ، وفى الأجيال التى رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ فناءها ،وفى المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التى دارت بها اربعة آلاف من السنين البطاء .

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به ، ان كانوا قد قصدوا إلى شىء من ذلك ، فما أراه أنا إلا تجسيدا لتلك الملكة الإنسانية التى يسمونها « الذاكرة » فى صورة بارزة محسوسة ، وما من أحد عرف أى شعور تحركه فى النفس ذكرى الأيام السوالف ، وماذا ترسم على الوجه ، إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله فى هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التـاريخ .

وهو لا يقيس الزمن بالسنين ، فانها هنيهات ، ولا بالأجيال فانها لحظات ، وإنما يقيسه بالدول التى قامت ثم تقوضت تحت عينه التى لاتتعب ولا تشبع من النظر،ذلك أن فيه معنى من معانى الخلود ،فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما ،وعاش ليبصر الخراب يعفى عليهما ويوكل بهما البوم والوطاويط ، ورأى أبناء اسرائيل يقومون ثم يسحقون ، والأغارقة ينهضون ثم يموتون ، وروميةتشاد ويرتمى ظلها على الأرض

ثم تفنى ، والعرب يستفيضون فى الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون فى سبيل من غبر .

وكما أخذت عينه عظام مئات من الدولات كذلك ستأخذ قبور مئات أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون .

والمرء ينظر إلى ابى الهول الساهد ويفكر فى آلاف السنين التى قضاها هنا على حافة الصحراء ، فلا يستغرب ولا يخالجه شيء من الشعور بالتنافى بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا ، وذلك أن ربضته تشيع فى النفس معنى الاستقرار التام . وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له فإنه جلسة مريحة تقترن فى الذهن بمعنى الاستمرار ، وليس كذلك « النهوض » كما هو مصور فى تمثـال مختار ، والمرء خليق حين يعود اليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده ، أما أن يثب إلى الأرض ، وإما أن يعود إلى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى ، إما البقاء هكذا يوماً بعد يوم . وشهرا فى اثر شهر ، وعاما فى عقب عام ، فليس من السهل على العقل أن يأنس اليه ويقتنع به ، وقد تكون هذه مزية للتمثال ، وعسى أن يكون المقصود بها انها نبوءة أو أمل أو نحو ذلك . ولست أعيب أو انقد ، فما أعنى اكثر من انى حين أنظر إلى التمثال لا احس انى قد رايت كل شيء ، وقد اتوهم انه سيثب عن القاعدة إلى الأرض .

وهذا الذى عليه ابو الهول الجديد اقعاء لانهوض ، فإن الحيوان ـ من البعير إلى الهرة ـ حين يريد ان ينهض ، يقوم على رجليه الخلفيتين اولا ثم على الأماميتين ، اما القيام على رجليه الأماميتين ،

لحسب فهـــذا هو الأقعاء ، وهو جلسة للحيوان يتخذها احيانا ، واكثر مايراه الانسان فى الـكلاب ، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة عيونها ، وحسب ان مختارا انما اثر هذا الوضع لأن منظر ابى الهول يكون غريباً ثقيلا إذا انهضته على رجليه الخلفيتين ، كما ينبغى ان يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض ، او لعل عذر مختار ان ابا الهول هذا خليط من الإنس والحيوان فله ان ينهض كيف يشاء حتى على راسه .

وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب ابى الهول لأ افهم معناها ولا ادرى لماذا يقيمها المثال هناك ويضنيها بهذه الوقفة المتعبة ؟ ولو كنت انا « مختارا » لاستغنيت عنها جملة ولاجتزات بأبى الهول وحده . لأنه إذا كان المراد الرمز إلى انمصر تنهض ، فإن ابا الهول بمفرده حسب من شاء ان يرمز إلى ذاك . ولن يركب الجهل احدا فيتوهم ان المراد به رومية او قرطاجنة، ففى نهوضه وحده ما يكفى رمزا لنهوض البلاد التى اقترن اسمه بتاريخها . زد على ذلك ان قيام الفتاة إلى جانبه تخليطٌ ، وذلك انها على ما فهمت رمز لمصر الحديثة . وعلى هذا يكون ابو الهول عنواناً على مصر القديمة ، وكان المعنى ـ على هذا ـ ان مصر الحديثة توقظ مصر القديمة ، او ان مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفى كنفها ، وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسيغ معناه ، واصح من ذلك ان هناك ـ او هنا على الأصح ـ مصرا واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات ، وانها كانت نائمة او متفترة او ماشئت غير ذلك ثم ، هى الآن تستيقظ او تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض ، وهو معنى لا يحتاج إلى هذه الفتاة التى تفسده ولا تؤيده .

ولست استريح إلى وقفة الفتاة فإنها كالعصا ، ويمناها التى على راس ابى الهول غريبة فى وضعها ، فإنه لا يسندها فى الحقيقة إذا تأملتها الا اصابعها ، اما ذراعها فكالمعلق فى الهـــواء وان كانت الشملة - او لا ادرى ماذا هى - تحجب هذا التعليق عن عين الناظر ، وهى لاتفعل بيمناها هذه اكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون باطن الراح ، ولا ادرى لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها ؟ ثم ما معنى هذا الوضع وما الذى قصد به اليه ؟ اتراه اراد الإيقاظ ؟ فهذه ليست حركة ايقاظ ، وليس فى وجه الفتاة ادنى التفات الى الذى بجانبها ان صح انها تريد ان توقظه . ام ترى المراد ان مصر الجديدة تحسر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة ، فإن كان هذا هو المقصود واحربه ان يكون ، فان رمز النهوض واليقظة هو الفتاة لا ابو الهول ، ولا داعى اذن لإقامة ابى الهول على رجليه ما دام ان الناهضة سواه ، وانه ليس الا تكأة ووسيلة للرمز الى الاتصال بالماضى ، وحينئذ يكون المعنى اتم واقوم بأن يظل ابو الهول هذا رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة الى جانبه .

والخلاصة ان التمثال كان حقيقا ان يكون اوفى بالغرض فيما ارى لو ان ابا الهول ظل رابضاً الى جانب الفتاة المعتمدة عليه اشارة الى اتكاء مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها اياه ، او لو ان التمثال خلا من الفتاة . والأولى عندى افضل اجتنابا للاقعاء ، وتفاديا من الوقوع فى هذا الغلط . اما التمثال فى شكله الحالى فلا اكتم القراء انى احس كأنى احمله وقاعدته على ظهرى . ولا يسوء مختارا قولى هذا فإنه يعلم انى من اجهل الناس بالفنون ، وان ليس لى من الوسائل المعينة على حسن التقدير سوى راس واحد وعينين اثنتين ليس الا .

الحب الأول

•

كنت صغيرا لم أدخل - بعد - فى حدود الشباب ، وكان الوقت صيفاً ، وأكثر ما أقضى النهار أمام البيت الاعب الصبية من لداتى ، فمرة نكون قطاراً بخارياً مؤلفاً من بضع عشرة قاطرة - ليس بينها مركبة واحدة - ننفخ جميعاً ونقول « اومف اومف بفو بفو » وأخرى نكون خيلا تصهل وتتوثب وتضرب الأرض بحوافرها وتزعج المارة وتصطدم بهم ، وطورا نتقاذف بالكرة ونحطم بها زجاج النوافذ فيثور السكان ويجلوننا عن الحارة ، وتارة نقسم أنفسنا فريقين ، عصابة من اللصوص وضباطاً ، وأحياناًنعصبلواحد منا عينيه وتتوارى عنهوينطلق هو وراءناباحثاً فمن لقىمنا عصبنا له عينيه بدلامنه ،وهكذا إلى آخرهذه الألعاب الصبيانية أن كان لها آخر يعرف أو حدتقف عنده ولا تعدوه. وكنت أنا بفضل الله احقهم جميعاً وأشرسهم خلقاً وأسرعهم إلى الشجار ، وكنت إذا ضاربنى أحد لا أبالى أين وقعت يدى، ولا أتقى أن أصيب عينه أو أنفه أو اسنانه ، وقد اتناول الحفنة من التراب واعفر به وجهه وأرده كالأعمى ، ثم انهال عليه لطما ولكما وركلا . فقد كنت واسع الحيلة كما ترى فعوضنى ذلك من ضعفى ، وصارت لى بفضله منزلة بين هؤلاء الصبيان .وكانت لى جارة- فتاة صغيرة كالنرجسة

فى مثـل سنى ـ وكنت أكثر ما أراها مطلة من النافذة علينا أو واقفة إلى بابهـا تنظر الينا ولا تشترك معنا ، ولا أستطيع أن اصفها ، فقد بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة،وان كنت لا أزال أرى لها نوطة فى القلب وعلوقا بالفؤاد كلما كرت بى الذاكرة إلى تلك الأيام، وكانت لا تفتأ تنكر منى طيشى ومغامراتى . رأتنى مرةمقبلا على البيت بعد الغروب بقليل وعلى جلبابى الأبيض طوائف شتى من الأوحال فاستوقفتنى وسألتنى : « ما هـــذا ؟ ماذا أصابك ؟ »

قلت : اعترضتنى حفرة واسعة فأردت أن اعبرها وثباً فقصرالوثب عن الغاية فكان ما ترين .

قالت : لو فكرت قبل أن تثب لعلمت أنك لا تستطيع أن تعبر الحفرة .

قلت : ولكنى عبرتها .

قالت : كلا ! لم تعبرها بل وقعت فيها وهذه ثيـابك تشهد عليك .

قلت : ولكنى اجتزتها والسلام . ألا ترييننى أمامك ؟

قالت : عنيد ولا خير فى الكلام معك .

وتركتنى .

واتفق بعد شهور من ذلك أن لقيتها عائدة إلى بيتها وكنا على مسافه مائتى متر منه ، فلما صرنا فى «الحارة» إذا هى زحلوقة لاتثبت فيها القدم من كثرة الماء المرشوش ،ولم يكن ثم طريق آخر ،فاسندت يدها

على الحائط وناولتنى يدها الأخرى ، وقلما كنت ألمس يدها . فلما صارت كفها فى كفى شعرت بشىء من الزهو ممزوجا بالغبطة ، وخفت على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتى - التى خيل إلى انها قوية - فجعلت أصابعى حول رسغها حيث العظام فيما بدا لى أقوى على الاحتمال، وجعلت أخطو بحذر مخافة أن يطير إلى ثوبها النظيف رشاش من الماء القذر، وكانت مضطرة أن تعتمد على بجسمها ، وتلك أول مرة دنت منى أو دنوت منها إلى هذا الحد ، وكان شعرها محلولا ومرسلا من فوق كتفها على صدرها، فجعلت أدنى أنفى منه وأشمه،ولم يكن معطرا ولكنى كنت أجده ريحاً طيبة ،فلحظت ذلك منى وسألتنى وقد جذبت يدها قليلا

« ما هذا الذى تفعله ؟ »

قلت : إنى اشمك .

قالت : تشمنى ! إنك أوقح من رأيت من غلمان حارتنا .

قلت : لست أقصد أن اكون وقحاً ولكن لشعرك رائحة طيبة فهل من بأس أن اشمه ؟

قالت : كلا لا تفعل .

قلت : لقد فعلت وانتهى الأمر .

وبعد قليل قلت :

« هل تعلمين ان على وجهك وشعرك سبعة - ثمانية نجوم ؟ »

فابتسمت ولم ترد ، فقلت ومددت أصبعى وأشرت به

« حقيقة . نجمان على شعرك ، هنا وهنا ، ونجم على جبينك هنا — ثلاثة — ونجم فى كل عين — خمسة — ونجم على طرف انفك — ستة — واثنان على فمك هنا وهنا — ثمانية نجوم — ليت معك مرآة ! إذن لأريتك ! »

فضحكت ، وكنا قد صرنا إلى الارض الناشفة فعدنا إلى وسط الطريق وسرنا ، ولكن يدها بقيت فى يدى ، حتى بلغنا بيتها فشكرتنى ودخلت .

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير فى نفسى ، لا أعرف له مشبها ، ولم يخطر لى قط أنه راجع إلى أية عاطفة خارجة عن حياتى العادية ، فكنت كلما رأيتها اشعر بشىء من الدهشة ويعاودنى الحنين إلى شمها — اعنى شم شعرها .

ولقد عرفت بعد ذلك فتيات كثيرات اجمل منها وافتن ، ولكن خطأت فيهن جميعاً ذلك العبق الذى كانت تستريح اليه حواسى ، والذى كان يفتر له جسمى ، وكانت تغيب عنى اسبوعا واسبوعين فأنساها ، وان كنت احياناً ارى صورتها ماثلة فى ذهنى وفى احلامى ، وصرت احب ان اراها وهى لا ترانى ، لأرنو اليها مطمئناً وارى شفتيها الدقيقتين تفتران عن ابتسامة خفيفة ، واشتاق ان اساعدها واحميها كما ساعدتها يوم تخطيت بها تلك الأرض المبللة ، وان اسمعها تشكرنى كما شكرتنى يومئذ .

وقلت على الأيام ملاعبتى للصبيان ، وكثرت وقفاتى معها على بابها ، ثم غابت اسابيع فى قرية فيها بعض اقاربها ، فشعرت بوحشة لا عهد لى بمثلها ، وثقلت الحياة على كاهل صبرى ، فذهبت انا ايضاً إلى اقاربى وقضيت

عندهم شهرا كان من اطيب ما مر بي واحلى واندى . ثم عدت ولقيتها مساء يوم على باب دارها كعادتها، وكانت مطرقة وفى يمناها عود من ثمر الحناء تقطع بيسراها اكامه التى لم تنور ،وتفركها بأصابعها وتدعها تسقط إلى الأرض، فدنوت منها وهى لاتحسنى ووقفت برهة ،ثم قلت بصوت خفيض مرتعش . «فيم تفكرين ؟ »

فلم ترفع عينها ولم تولنى نظرة واحدة،وقالت وهى مطرقة وأصابعها لا تزال تعبث بما فى يدها .

« فيم أفكر ؟ فى مثل هذا ــ فى النور الأصفر تحت اكامه الخضر، فى سحائب التراب على الطريق ، فى الأغيصان الصغيرة الخضراء النابتة على فروع الشجر ، فى الأطيار تلقط القش وخيوط الصوف التى ألقيها لها لتحملها بمناقيرها وتصنع منها أعشاشها ، فى ألوان الفجر على الأشجار والحقول الندية الملتمعة ، فى الامساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة، فى الغدران يترقرق فيها الماء حول قدمى المدلاتين ــ » (ثم رفعت وجهها إلى وقالت :« فى هذا أفكر »

وكانت تتكلم بصوت خافت متئد متزن النبرات كأنما تحدث نفسها فدهشت ، لا بل بهت ، ووقفت صامتاً كأنما أستل لسانى من حلقى ، وظللنا كذلك لا أدرى كم ، ثم قالت « والآن سأدخل . »

ولكنها كانت بالذى يهم بالدخول أشبه، فوجد لسانى الكلام وقلت « لا تذهبي هكذا بغير تحية أو سلام » .

فوقفت مكانها وأمالت رأسها ووضعت يدها فى خصرها كأن هنا

شيئاً يؤلمها فدنوت منها فإذا بلمعة عينيها تنطفئ ووميضها يخبو ، فقلت:
« ماذا كنت تقولين ؟ »

فلم تجبنى ومدت يدها إلى بثمر الحناء فقلت .

« هذا حسن . تحية طيبة . سأذكرك بها دائماً . والآن ماذا كنت تقولين ؟ أثم شئ يحزنك ؟

قالت : « أى شئ يحزننى ؟ لا شئ » .

قلت« انى أرى هذا فى عينيك ، فى وميضهما ثم انطفاء هذا اللمعان ».

قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة : « ماذا ترى فى عينى ؟ »

قلت : وكأنى ألهمت الألفاظ « أرى كأنك كنت تنتظرين شيئاً ثم لم يحدث »

فقالت « فقط ؟ لا أكثر ؟ »

قلت « فقط . وأريد أن أعرف ما هو ؟ ولماذا ؟ »

فأطلقت ضحكة صغيرة فضية النبرات، وبدا عليها شئ من السرور وفتحت ذراعيها وقالت « كلا لعل قلبى أطل من عينى هنيهة كما يطل الطفل من النافذة ثم عاد إلى مكانه .. »

فابتسمت وقد زدت بها اعجاباً وقلت « وماذا أراد قلبك أن يرى من نافذة عينيك ؟ »

قالت «ألا تطل أحياناً من النافذة فتبصر طفلا يعدو وهو مسرور ؟»

قلت « نعم »

قالت « كذلك القلب أحياناً يجرى أمام العين فرحا مسروراً، أظن قلبى فعل ذلك حين رأيت عينى تلمعان . »

ثم بعد ثانية أو اثنتين :

« والآن دعنى ادخل ، إن معك هذه الزهرة فاحفظها »

ومضت عنى وتركتنى واقفا كالأبله لا أكاد افقه من كل ماقالت شيئاً وإن كنت قد وعيته كما لم أع فى حياتى شيئاً غيره .

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر فمررت بدارها يوما بعد الغروب، وكان الباب مواربا فرأيتها تسقى أصص الزهر فى فناء البيت، فوقفت أتأملها لحظة وهى تقبل الورد والأزاهير بعد سقيها ورشها ، ثم دخلت فى رفق وهمست باسمها فلم تسمع ، فأعدت الهمس فانتبهت كالمذعورة .

وقالت « ابراهيم ؟ » وكررت ذلك .

فاقتربت منها وقلت « نعم هل افزعتك ؟ »

ووقفت . شفتاها مفترقتان ووجهها تصبغه الحمرة من أثر المفاجأة. ولم أكن أعرف ماذا ساقنى إليها سوى أنى اشتقت أن أراها وان أقف معها لحظة احادثها ، وقالت :

« لقد كان يجب أن أفزع ، فما سمعتك تدخل ، لكن من الغريب إنك خطرت ببالى وأنا أسقى هذه الأصص » .

فكدت أصيح لا ادرى لماذا ، وقلت « اصحيح هذا ؟ انه يسرنى »

فقالت « لم اكن افكر فيك تفكيراً يسرك (وضحكت) لقد كنت ساخطة عليك » .

فضحكت مثلها وقلت « ماذا جنى هذا الشق ياترى ؟ » .

فقالت « لست ساخطة لانك فعلت شيئاً ، لقد كنا عندكم انا ووالدتى واختى وقضينا النهار كله تقريباً ، وانت لا اثر لك فى البيت ، ولايدرى احد اين ذهبت ، وفى وسعك ان تتصور مللى بين السيدات العجائز » .

فضحكت مرة اخرى وقلت « انى افضل أن ألقاك هنا ويسرنى أن اجدك وحدك » .

قالت « وهل كنت واثقا انك ستلقانى هنا ؟ »

قلت « كلا »

قالت « اذن لماذا جئت الآن ؟ »

قلت « لا اعلم ، اشتقت أن اراك لا ادرى لماذا جئت . »

ولم اكن اكذب ، فما كنت استطيع ان اعلل الشعور الذى يدفعنى إليها ، ولا جرى ببالى إن اعلله ولكننى بهذا التصريح وبالسكون الذى تلاه ، شعرت انى دنوت خطوة من الحقيقة المجهولة ، او هكذا يخيل إلى الآن ، وانعقد لسانى فسكت و اعديتها فسكتت مثلى ، واحسسنا كلانا فيما نظن - كأن هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو ، شيئا لا يناله ادراك ولا يرقى إليه العقل ، غيرمحسوس كالطيب يحمله النسيم .

ومر بخديها طيف من الحمرة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عينى واتأرتها النظر ، فتراجعت خطوة وهى تقول « ينبغى ان ادخل » فوقفت ارمقها وهى تدور لتمضى عنى ، ثم كأنما انشق عنى سور فاندفعت اليها ووقفت إلى جانبها ، وجعلت أدير لسانى فى حلقى بلا كلام وقلبى يخفق

وتناولت يدها وذهبت بها إلى الباب حيث ظللنا برهة صامتين، ثم صاحت « يدى . يدى ستحطمها »

فانتبهت وأطلقت كفها وأسفت، فقالت بصوت عذب « دعني أدخل بالله »

فتناولت يدها مرة أخرى وعدت أطلب أن تغفر لى ايذائى يدها، وقلت انى لا أستطيع أن أعود إذا لم تقل لى انها ليست حانقة على . وكنت أحس أصابعها تتحرك فى كفى فقالت:

« كيف احنق ؟ لقد نسيت . دعنى أدخل »

قلت — وأعود مرة أخرى لاراك ؟

قالت — نعم

قلت — ولا تعجلين بالدخول ؟

قالت — كلا ، دعنى الآن .

ولكنى لم أعد لا اليوم التالى ولا الاسبوع التالى ولا الشهر التالى، لسبب طبيعى جداً هو انى لم أكد أسير إلى آخر الطريق حتى برز لى شاب من الظلام وصاح بى « ماذا كنت تفعل هناك ؟ »

قلت « أين ؟ »

قال « هناك » وأوما برأسة وبابهامه إلى بيتها .

قلت — كنت أزورهم .

قال — تزورهم ؟ هيه؟ تزورهم سأعلمك أن تزورهم مرة أخرى ودفعنى فى صدرى فانطرحت على الأرض ، وقمت ألعنه وأسبه وأقبل على

ودق رأسي بجمع يده فهويت إلى الأرض على ركبتي وركلني برجله ، وذهب وهو يتوعدني إذا فكرت في العودة إلى هذا الطريق .

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عيني عليه من قبل، ولم أفهم — إلى هذه الساعة — سر هذا العدوان . فرجعت إلى البيت بصدر موجع ورأس يكاد يكون مهشما وعظام مرضوضة .

ولزمت الفراش أياما وخفت بعدها أن أرجع ، ثم صرت استحيَ أن ألقاها مخافةَ أن تسألني عن سر غيبتي ، أو أن تكون قد علمت به .

وبعد شهور عدت من المدرسة يوما فإذا هي ووالدتها في بيتنا ففرحت وخجلت ، ولما سلمت كانت يدي ترتجف ، وعيني إلى الأرض، وذهبت إلى غرفتي فأدركتني في الصالة وقالت «خذ» وناولتني عوداً من ثمر الحناء فأخذته في صمت وادنيته من أنفي ، ووقفت اشمه واشمه وقد غاض معين الكلام وانقطع عني مدده . فلما رأت صمتي وارتباكي قالت :

— سنذهب «إلى الريف»

فانطقتني هذه المباغتة وقلت — ستذهبين ؟ وكم تظلين هناك ؟

قالت « عاما . أتستكثر ذلك ؟ »

قلت — « بالطبع أني آسف جداً » .

قالت — « ولكنك لا تزال تهرب مني » .

فأغضيت عن هذه الملاحظة ، وسألتها — « وماذا تنوين أن تصنعي هناك هذا العام ؟ » .

قالت — ياله من سؤال وكيف يعنيك أن تعرف ؟»

وضحكت فجلت ضحكتها صدرى، ونفت مخاوفى ونظرت إليها معجبا، وأحسست بالدم يتدفق فى عروقى ، وبأنفاسى تسرع ، وحمل إلى النسيم الوانى طيب شعرها فمددت يدى إلى كفها ، وكانت شفتاها مفترقتين وعيناها فى عينى ، وصدرها يكاد يلمسنى، فألفيت نفسى انحنى عليها والمس شفتيها بفمى ، فصار وجهها كالجمرة ، ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت ، ودار رأسى كالمخمور فتقهقرت خطوة ، وهى واقفة كالتمثال ، وما أظنها كانت تتنفس أو تفكر ، فما رأيت صدرها يتحرك أواجفانها تختلج : كلا لاشىء إلا هذا الجمر فى خديها ينبىء أنها حية .

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها ، ثم هتفت بى ، فأسرعت وأخذت يديها فى كفى ،ثم رفعتهما وقبلتهما وقلت لها : « أغاضبة أنت ؟ ؟ قولى إنك لست غاضبة » .

فأجابتنى بهزة خفيفة لرأسها ، فقلت :

« لست غاضبة . أعلم ذلك ، وإلا فما قبلتك ، تكلمى » .

فقالت همسا : « دعنى أذهب أنى خائفة » .

فقلت « إنك جميلة . جميلة » وأنهلت على يديها مرة أخرى الثمهما ظهراً وبطناً ثم سحبت يديها ببطء ، ووضعتهما على صدرها وقالت وهى تتلعثم وترتجف : « قل لى ما هذا » ؟ .

قلت : ووضعت يدى على يديها فوق صدرها « هذا ؟ الاتعلمين أنه الحب ؟ » .

فتنهدت ، وارخت يديها وتركتهما تهويان وقالت :

« سأذكرك دائمـا » .

قلت : كلا هذا لا يكفى . سيحبك غيرى » .

ولم تـكد شفتاها تفترقان ، وهمست كأنما تتنفس .

« سأحبك دائمـا » .

وكان هذا آخر لقاء ، فقد زوجوها فى الريف .

حلاق القرية

وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة ، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها ، فقد عرض على مضيفى أن استعمل موساه فابيت ، وقلت مادام للقرية حلاق فعلى به ، فحذرنى مضيفى وانذرنى ووعظنى ، ولكنى ركبت رأسى واصررت أن يجىء الحلاق . فجاء بعد ساعات يحمل ماظننته فى أول الأمر (مخلاة شعير) وسلم وقعد وشرع يحيينى ويحادثنى حتى شككت فى أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر ، وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى (طلائعه) ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق (محسوبى) يعنى نفسه ، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يحلق لى لحيتى ؟ أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولا ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم وأولانى صدغا كث الشعر وقال « هيــا » فظننته أصم وصحت به (أ . . ر . . يد أن . . . أ . . حـ . ل ق) فسره صياحى جداً ، وضحك كثيراً ، وأقبل على (مخلاته) فأخرج منها مقصاً كبيراً جداً ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟

فقال : فيل ؟ لمــاذا ؟

فأشرت إلى المقص فضحك وقال : « هذا مقص حمير ولا مؤاخذة » .

فقلت « ولماذا تجيئني بمقص الحمير ؟ أحماراً تراني ؟ » .

ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت احساسه فإنه لم يعتذر لى ولا عبئ بسؤالى شيئاً ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و (مكنة) من هذا القبيل أيضاً ، فعجبت له لماذا يجئ إلى بكل أدوات الحمير ؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر مارأيت فى حياتى . ثم أقبل على وقال : « تفضل » .

قلت « ماذا تعنى ؟ » قال « اجلس على الأرض » قلت « ولماذا بالله ؟» قال « ألا تريد أن تحلق ؟ » قلت « ألا يمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ؟ » قال « وأنا ؟ » قلت فى سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير ، وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت : أن وجهى ليس حديداً ياهذا ، قال لاتخف إن شاء الله ولكنى خفت بإذن الله ولاسيما حين شرع يقول « بسم الله ، الله أكبر » كأنما كنت خروفاً ، ويبصق فى كفه ويشحذ الموسى على بطن راحته ، ثم جذب رأسى ، فذعرت ونفرت ووليت هاربا إلى أقصى الغرفة ، فقال : ماذا ؟ .

قلت « ماذا ؟ أتريد أن تحلق لى بمبرد ، ومن غير صابون ؟ »

قال « ماذا يخيفك ؟ » .

قلت « يخيفنى ؟ لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد لى شعرها » .

قال « يافندى لاتخف » .

ثم قرأ من الكتاب الكريم « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته

البشرى » إلى آخر الآية الشريفة ، واظنه أراد أن يرقينى بها فيالها من حلاقة لا تكون إلا برقية ! .

واسلمت أمرى لله وعدت فقعدت ، أمامه فنهض على ركبتيه وتناول رأسي بين كفيه وأمال صدغي إليه ثم وضع ركبته على فخذى ولف ذراعه حول عنق ، فصار فمى مدفوناً فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحداً يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى .

ولا أطيل على القارىء . فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى فسلخ قطعة من جلدى فردنى الألم إلى الحياة ، وأتانى القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة ، ووثبت أريد الباب ولكنه كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظا لأمثال هذه المحاورات ، فردنى بقوة ساعده . فتشهدت وتذكرت قول المتنبى :

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جبانا

كلا ساسدل الستار على هذا المنظر الذى يقشعر منه جلدى على الرغم من كر السنين الطويلة . ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش ، ووضعه تحت ذقنى وصب ماءه على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته (منشفة) هى بممسحة الأرض أشبه ، فاعتذرت وأخرجت منديلى وسبقته به إلى وجهى . فهى معركة لاتزال بجلدى منها ندوب وآثار .

سحر مجرب

لا أدرى كيف أسوق للقارئ حكاية هذه التجربة بحيث لا يتوهم أنى أهزل، ولكن الذى أدريه أنه قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب، ولو أنه قدر لى أن اكتب تاريخ حداثتى . . ولكنى هزيل الصبر، ولعل مما هو حقيق أن يعين القارئ على فهم البواعث التى تغرى حدثاً فى مثل سنى يؤمئذ بما فعلت، أن أقول له إنى نشأت نشأة دينية، واعنى بذلك أن أهلى من أهل الورع والتقوى والصلاح، وأن بيتنا كان فى فنائه مصلى أو مسجد صغير عامر أبداً بالمصلين ليلا ونهاراً . والآن إلى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذى لم أر منه بدا اتقاء لسوء التأويل ونفيا لمظنة المغالاة .

عثرت فى باكورة حياتى على أوراق مخطوطة استولت على هواى واستبدت بخاطرى، وقد اعتقدت يومئذ انها بخط جدى لأبى وإن كنت لاأذكره إلا كالحلم، فقد مات فى طفولتى ولحق به أبى، ولم أره قط يكتب ولاثبت عندى أن هذا خطه، وكنت أكبر جدى وأجل ذكراه لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثوننى به عن علمه وتبحره وتقواه، فقوى اعتقادى هذا ثقتى بما فى الأوراق وثبت يقينى فيها، وكان من عادتى أن اقضى الصيف فى « الإمام » حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلى، وكان

لأحدهم حمار مليح القسمات لين الخطوات ، فكنت أركبه حين أشاء إلى حيث أشـــاء ، وأبى الحظ إلا أن أعشق ، وما أكثر من عشقت فى تلك السنوات الأولى من شبابى . ولقد صدق أخى « العقاد » حين قال يصفنى بعد ذلك بأعوام عدة :

أنت فى مصر دائم التمهيـد بين حب عفا وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه وطريف كاليـانع الأملود
أنت كالطير . ربما شالت الطـــير عن الأيك وهو جم الورود

ولم يكن الحظ يلقينى إلا على كل فتـاة « عسيرة البذل » كما يقول الشاعر ـ ولا أذكر من هو ـ فحرت ماذا أصنع ، ولم أر أن أستشير أحداً من الصبيان الذين كنت أختلط بهم، لأنى كنت أراهم دونى معرفة ، ثم تذكرت الورقات التى كنت أعتقد أنها مما خلف جدى ، فوجدت فيها (فائدتين) طرت بهما فرحاً ، فأما الأولى فتقول :

« من أراد الارتقاء إلى الدرجات العلا فليتطهر ظاهراً وباطناً ، وليصم سبعة أيام وليواظب دبر كل صلاة على هذه الأسماء — يا هادى يا خبير يا متين يا علام الغيوب — ألف مرة ، فإنه يكشف له عن كنوز الأرض وينادى به فى ضمائر الناس، وإن أكمل ثلاثة أسابيع فى الرياضة كشف له عن ملكوت السموات والأرض بإذن الله تعالى ، وأما صفتها للإخفاء فهى أن تقرأ الآية الشريفة سبعمائة وخمسين مرة ، ثم تقول بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم ـ إلى قوله فهم لايبصرون ـ ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة ، فلو اجتمع أهل السموات والأرض على أن

بصروك لم يقدروا ويعمى الله أبصارهم عنك فلا يرونك ، وأكثر من ذلك أن يحول الله قلوبهم إليك بالرافة والمجد والعطف » .

وكان هذا كل مافى الورقة ، فأما كنوز الأرض فلم يكن يعنينى منها يومذاك شيء ، فما كان لى هوى إلا مع تلك الفتاة ، أو رغبة إلا فى الانة قلبها . وأما الكشف عن ملكوت السموات والأرض فشيء مرعب خفت أن أعالجه فاصعق . وأما الاختفاء عن الأبصار فهـذا ما سحرنى واستولى على لبى ، وتشبث به خيالى . ألست أستطيع إذا فزت بذلك ووفقت إليه ببركة هذه الفـائدة ، أن أكون ادنى شيء إلى الفتاة وأن أراها ولا ترانى واتملى بحسنها وقربها وهى ذاهلة عنى لاتحسنى ؟

ألست استطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء وإن أفعل ما بدا لى بلا تثريب ؟ لا ترانى الأبصـار ؟ وافرحتاه ؟ أى شيء اتقى بعد ذلك ؟ أى شيء يصعب على ؟ تالله ما أولانى بحمد الله على أن كان لى مثل هذا الجد الصالح ؟ .

ولكن الورقة لم تذكر الآية التى لابد من تلاوتها سبعمائة وخمسين مرة، ماذا أصنع ؟ حرت قليلا ولكنى كنت فتى عملياً ، فتناولت المصحف الشريف وقلبته حتى وقعت عينى على قوله تعالى « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » واقنعت نفسى بأن كلام الله كله فى منزلة واحدة من الجلال وأن كل آية كـكل آية ، وليست كلمة منه بأفضل من أخـــرى غيرها . وما أرى حتى الآن إلا أن منطقى كان مستقيما وتفكيرى كان سليما سديداً .

وأما « الفائدة » الثانيه فتقول ما يأتى :

« ومن أراد اقبال الناس عليه بالمحبة والهيبة والتعظيم له فى قلوبهم فعليه بقراءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة اربعمائة وخمسين مرة ثم يتلو بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة الاف مرة فانه يحصـــل له من الخير مالاتدركه الأفهام وهى هذه « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم يا الله ـ ثلاثا ـ يا رحمن ـ ثلاثا ـ يا رحيم ـ ثلاثا ـ لاتكلنى إلى نفسى فى حفظ ما ملكتنى مما انت اعلم به منى، وامددنى برقيقة من رقائق اسمك الحفيظ الذى حفظت به نظام الموجودات واكسنى بدرع من كفايتك وقلدنى سيفاً من نصرك وحمايتك وتوجنى بتاج عزك ومهابتك وكرمك وركبنى مركب النجاة فى المحيا وبعد الممات بحق خجش ثطخذ وامددنى برقيقة من رقائق اسمك القهار تدفع عنى بها من ارادنى بسوء من جميع المؤذيات وتولنى بولاية العز يخضع لى بهـا كل جبار عنيد وشيطان مريد يا الله ياعزيز ياجبار ـ ثلاثا ـ الق على من زينتك ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ما تبهر به العقول وتذل به النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الأبصـار وتبدد دونه الأفـكار ويصغر له كل متـكبر جبار وتسخر له كل ملك قهار يا الله يا ملك ياعزيز ياجبار ـ ثلاثا ـ ياالله ياواحد ياأحد يا قهار ـ ثلاثا ـ اللهم سخر لى جميع خلقك كما سخر البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لى قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فانهم لا ينطقون إلا بإذنك ، نواصيهم فى قبضتك وقلوبهم فى يدك تصرفها كيف شئت يا مقلب القلوب ـ ثلاثا ـ يا علام الغيوب ـ ثلاثا ـ اطفأت غضبهم بلا اله إلا الله استجلبت محبتهم بسيدنا

ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم « فلما راينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا إلا ملك كريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ويكون ذلك فى جوف الليل ، ثم تصلى ست ركعات فاذا سلمت تقرأ الدعاء تسعمائة وخمسين مرة ، وفى حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كأنك تجذبه إليك ، فإذا وفيت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعاً وهى « يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله . لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، تقرأ هذه الآيات سبعاً وأنت فى كل ذلك تبخر بالجاوى واللبان الذكر .

ثم طويت الورق ووضعته فى جيبى وخرجت إلى السوق ، وقد بدأت أشعر كأنى فوق الناس ، أو كأنى أمشى فى السحاب ، واشتريت قليلا من الجاوى واللبان والفحم ، وخرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت ، فلما رأتنى أحمل هذه الأشياء ضحكت وقالت « أتراك صرت خادماً ؟ مبروك ان شاء » فألقيت إليها نظرة عطف مشوبة بالكبر ، وقلت ملغزاً ويدى على جيبى « أترين هذا الجبل ؟ ؟ - وأشرت إليه - سيحمل الليل إليك صوتاً منه » ومضيت غير عابىء بضحكها وسخرها .

ولا أطيل ، خلوت بقية النهار إلى نفسى حتى فرغت مما فرضت « الفائدة الأولى » ثم قمت بعد العصر بقليل وفى اعتقادى إنى قد اختفيت عن أعين الناس ، وقصدت إلى حيث الحمار مقيد ففككت القيد وأسرجته

وألجمته ووضعت عليه « خرجاً » فيه مايلزمنى من مواد البخور وأعواد الثقاب والفحم وسبحة وموقداً صغيراً وإبريقاً فيه ماء ، ووضعت فوق « الخرج » فروة صـــغيرة لجلوسى، ثم ركبت الحمار بعد أن صار أعلى من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل، وكان الناس قد ألفوا منى هذا الخروج، فلم يلتفت إلى أحد، ولكنى كنت أعجب لهم فى ذلك اليوم كيف لايدهشهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب ؟ وعللت ذلك بأن السر الذى أخفانى عن أبصارهم لابد أن يكون قد امتد إلى الحمار أيضاً فتوارى مثلى عن العيون، فجعلت أتلفت يميناً وشمالا وأضحك، واتفق إنى مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر - ولكنى لم أكن أعرف ذلك - فحككت له أنفى بسبابتى ورحت أخرج له لسانى وأمط شفتى تحت أنفى فلما لم أجده التفت إلى صفقت من فرط الجذل ، ففزع الرجل قليلا فقلت لنفسى سمع الصوت ، ولم ير الشخص فحق له أن يفزع، فطغى بى الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة ، فضربت الحمار فمضى يعدو بى إلى الجبل . وهناك فى سفحه ترجلت وربطته إلى حجر على باب كهف صغير كنا - وأعنى غلمان الحى - نقيل فيه إذا حميت الشمس، وفرشت الفروة فى جوف الغار ووضعت الفحم فى الموقد وأشعلت فيه النار وتركته للريح قليلا لتضرمه، واستلقيت أنا على الأرض، وانطلقت أفكر فيما سيكون من أمر الفتاة معى بعد أن أفرغ من العمل ، وجمح بى الخيال فبدا لى كأنى فى التهليل والتسبيح والدعاء فجاءنى رجل وجلس عن يمينى لم أر فى زمانى أحسن منه ولا أطيب ريحاً فقلت: من أنت ؟ قال : أنا الخضر جئتك حباً فى الله عز وجل وعندى هدية أريد أن أهديها إليك فقلت : وماهى

قال : هى أن تقرأ . فقاطعته وقلت : كفى . كفى . لقد بح صوتى من القراءة فدع هذا وهات لى . . .

ولم يعجبنى هذا ، فاختصرت الحكاية وجعلت الخضر يقوم مغضباً وأنا لا أعبأ شيئاً ، وعدلت بالخيال إلى سواه فتصورت الفتاة تهب من النوم مذعورة تلهج باسمى ويهتف بها هاتف أن اخرجى إلى مكان كذا فى سفح الجبل ، فتخرج فى ظلام الليل حافية عارية الرأس فى ثياب النوم ولاتزال تجرى حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى والرمال ، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصيح من ؟

فتقول فلانة (أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتك فلانة ؟)

فأقول « ماذا يجيء بك إلى هنا »

فتقول « لم أطق صبراً »

بل اجعلها تقول « رأيتك فى نومى ناظراً إلى محدقاً فى فجذبتنى عيناك ولم أزل أسير على ضوئهما حتى جئت إليك »

فأقسو عليها وأنتصف لنفسى منها وأؤدبها غير أدب الصباح حين تهكمت على وهنأتنى بأن صرت خادماً وأقول لها « ارجعى من حيث جئت فما بى حاجة إليك »

فتجثو على ركبتيها وتتوسل إلى أن أدعها ولو عند قدمى . . .

ولم يعجبنى أن أتصورها تجثو عند قدمى ، فقد كنت رقيق القلب مهذب النفس فغيرت الموقف واعتضت منه آخر فشرعت أغازلها تلميحاً

لا تصريحاً ، وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألنى ماذا تعنى ؟

فأقول أعنى ان للساق الجميلة سحرها

فتقول « ولكن ماذا يعنيك من ساقى هذه الفتاة ؟ »

فأقول « إنها تفسد على اليوم كله حين أراهما ، وأخشى جداً أن تفسد لى صحتى »

فتقول « إنك مضحك ولست أفهمك »

فأقول « تصورى هذه الفتاة التى سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة كيف يكون الها لو أن الشهرة (المودة) كانت تقضى بأن تكون ثياب النساء قصيرة ؟ كيف تجرؤ أن تبدى ساقيها لعيون الناس ؟ »

ثم أطرق برهة فتردنى إليها بسؤالها عنى ماذا بى ؟

فأقول « بى هذه الطبيعة التى تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا مثل هذا التشويه »

فتقول « لعل الفتاة سعيدة لا تفطن إلى عيبها »

فأقول « سعيدة ؟ أتكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها ؟ »

فتسرى فى بدنها رعدة خفيفة فأكر عليها بقولى .

« بأى حق تمنحك الطبيعة كل ماحبتك من المفاتن وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذى ضننت به عليها ؟ »

فتتهلل أسارير وجهها وتقول « ولكن لعلها لا تكترث لذلك »

فأقول جاداً « أين الفتاة التى لا تحفل أن تكون دميمة ؟ تصورى مالابد أن يصيبها من الألم حين تراك ؟ »

فترتفع عينها إلى وتحدق فى وجهى لتقرأ فيه المعنى الذى أرمى إليه والذى يغالطها صوتى فى حقيقته وأمضى أنا فى حديثى فأقول :

« إن كل ماجادت به الطبيعة عليك ينقصها . . . » فتقاطعنى وتقول :
« ولكن ماذنبى أنا حتى تحطم لى رأسى بها ؟ »

فأقول معتذراً « هل ضايقتك بحديثها ؟ إنى آسف . ولكن هذه المناظر تستفز نفسى وتثير سخطى كأنى وحش »

فتقول «ألا تظن انك قد تنوء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك؟»
فأنهض وأقول «لا لا لا ! يالها من فكرة شنيعة »
فتقول « إنك على ما يظهر . . . »
فأقاطعها وأقول « سأنسى ساقيها ولا أفكر إلا . . . »

ولكنى لم أشأ أن أعترف لها حتى فى الخيال ولم يرقنى هذا الحوار وما فيه من اللف والدوران، فغيرت المنظر وحولت الصحراء المحيطة بى جنة فيحاء حافلة بالشجر حا[illegible]ة بالزهر، وتصورت نفسى أطوف فيها باحثاً عن فتاتى ، ثم إذا بى أر[illegible] ثوبها فأمضى إليها على أطراف اصابعى ، فيعترضنى حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لى أن أتسلل إليها حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بى، ولكن النبات المتشابك تحيط بى أشواكه وأنا أعالج اختراقها وتسمعنى هى فتدير وجهها إلى ناحيتى

فتراني ، فتصبغ الحمرة وجهها ـ ومن عنقها إلى جبينها ـ ويعبث النسيم بشعرها ويطير على وجهها وكتفيها فتمسحه بكفها وترده عن جبينها، ثم تقف ويداها في جانبي خصرها، وشفتاها مفترقتان من المفاجأة، وكأنها تحاول أن تعلق أنفاسها مخـــافة أن تذهب زفرة بالسرور المباغت الذي شاع في كيانها حين رأتني .

ثم تهمس « ابر . . . اهيم »

فأصيح وانا اعالج من أسر الأشواك « لقد سجنت هنا »

فتقول « لقد قلت لي انك لن تأتي قبل اسبوعين ثم هذا أنت »

فأقول « إذا لم تأت إلى نجدتي فلن اجيء إليك قبل عام »

فتضحك ويسرها ما أنا فيه فأصيح بها « مهلا ريثما أتخلص »

وأحاول الخلاص فأزيد تورطاً، فتصفق وقد أمتعها منظر اعتقالي وتقول « لن تنفذ أبداً من هنا . فارجع . ذلك خير وأسرع »

وتخزني شوكة فأهيب بها أن تنجدني فتضحك وتقول « إن منظرك ظريف . ليت هناك مرآة فترى نفسك فيها »

فأضحك من نفسي وأقول لها « إني لم امش كل هذه المسافة ليكون منظري مضحكا . وما أراني استطيع الآن ان احرك اصبعاً فإن الشوك يتلقاني من كل ناحية . بالله نحي هذه الشوكة عن ذقني فإنها تكاد تقتلني »

وترى الدم سائلا من ذقني فيدركها العطف علي ، فتنحي الشوك بيديها عن وجهي وتضغطه بكفيها فيدنو وجهها مني ، وتصبح عيناي

فى عينيها ، وأننى قبالة أنفها ، وفمها امام فمى ، ويقرأ كل منا فى عينى صاحبه من آيات الحب ما لاسبيل إلى العبارة عنه ، ثم يدور رأسها ، وتهيم نظرتها وتهوى على فمى بفمها ، ويحط فى هـــذه الساعة عصيفير على غصن وينطلق يغرد .

ولما بلغت إلى هنا فيما تخيلت وبينما انا اتذوق القبلة التى تصو... مطبوعة على فمى ، نهق الحمار ! فانتبهت مذعوراً من حلمى اللذيذ ! ومحيت الصور الفاتنة وانتسخت الخيالات الأنيقة المعجبة وردنى الصوت المنكر إلى ماجئت من اجله ، فقمت متثاقلا وفرشت الفروة فى أرض الكهف واطلقت البخور فى الموقد ، وقمت إلى الصـــلاة ، ثم شرعت فى التلاوة على نحو ماحتمت الورقة .

●

ولا أدرى ماذا أصابنى ، ولـكن الذى أدريه انى ظللت اقرأ واقرأ فى جوف الليـل واطلق بخور الجاوى واللبـان ، ثم لم اعد اعى شيئاً . ولما قمت فى الصـباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل ، فخرجت من الغار وأنا لاأفهم ، وأدرت عينى فى كسل وفتور ثم تذكرت الحمار ، فجمد دمى فى عروقى ، وأحسست العرق البارد يتصبب . أين ذهب ؟ وكيف يفك القيد عن ارجله ويحل اللجام عن الصخرة ؟

ولا خير فى الإطالة فقد سرقه اللصوص وأنا ملقى كالجثة فى جوف الغار ، بارك الله فى جدى وفوائده . . !

الفروســـــية

دعينا مرة — أنا وطائفة من الأخوان — إلى قضاء يومين فى ضيعة أحدهم ، وكانت قريبة من إحدى الضواحى فركبنا القطار إلى . . . وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبغال والحمير ، فتوهمت فى أول الأمر أن هناك سوقا للدواب أو معرضا لها . ثم علمت أنها لركوبنا . فاخترت من بينها حماراً صغيراً وهممت بامتطائه ، ولكن صاحب الضيعة وداعينا عز عليه أن يركب (المازنى) حماراً ، وجاءنى بجواد أصيل وأقسم على لأركبنه . فاستحييت أن أقول له أنى أخاف ركوبه ، وأنه لا عهد لى بالخيل، ودنوت من بعض الخدم وهمست فى أذنه هذا السؤال .

« قل لى . كيف تركب هذا الحصان ؟ » .

فتأملنى مليا ثم قال وعلى فمه طيف ابتسامة .

« على ذيله ! » .

قلت « على ماذا ؟ » .

قال « على ذيله » .

وأشاح عنى بوجهه . فذهبت إلى الجواد وأدرت عينى فى ذيله ثم هززت رأسى وعدت إلى الخادم أسأله :

« ألا تظن يا صاحبى أن الأحزم أن أمتطيه قريباً من العنق لأستطيع عند الحاجة أن أطوقه بذراعى ؟ » .

فلم يزد الرجل على أن قال « ربما » وانصرف عنى إلى سواى ، وكنا جميعاً فى هرج ومرج نصيح ونضحك ، وكان لابد أن أفعل شيئاً فناديت مضيفنا وقلت له :

« أريد سلما » .

قال فى دهشة — « سلماً ؟ ما حاجتك إليه ؟ » .

قلت « حاجتى إليه إنى أريد أن أصعد إلى ظهر هذا الجلى ياصاحبي » .

فضحك وقال « أنا أساعدك » ودفعنى على ظهر الجواد دفعة خيل إلى أنها ستلقينى على الأرض من الناحية الأخرى .

وسرنا مسافة على مهل ثم وخز أحدنا دابته فمضت تعدو واستحث آخر مطيته ، وانطلق بها وراءه ، واقترب منى ثالث وأهوى على جوادى بعصا معه ، فوثب الجواد وراح يسابق الريح — أو هكذا خيل إلى — وأنا أعلو وأهبط فوقه ، حتى أحسست أن أمعائى ستتقطع ، وأتلمس بيدى شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت من قبضتى كل ما تصل إليه ، فارتميت على عنقه وطوقتها ، وجعلت أنادى من حولى وأناشدهم الذمة والضمير والمروءة أن يقفوا هذا الشيطان . وأدرك أحد اخوانى العطف على ، فصاح بى « ولكن كيف نقفه نحن راكبون ؟ » .

فغاظنى منه هذا البله ولم يفتنى مافى الموقف من فكاهة على الرغم من الألم الذى أعانيه ومما أتوقعه إذا ظل الجواد يركض بى ، فقلت له :

« يا أبله أنزل وأقبض على ذيل حصانى وشده » .

وكان أحد الخدم قد أدركنى وأمسك باللجام ورد الجواد ، فما أسرع ما انحدرت عنه ، وكأنما أعجبتنى جلستى على الأرض ، فأخرجت سيجارة

وأشعلتها وذهبت أدخن ، وجاءنى مضيفنا على أتانه فسألنى :

« أتنوى أن تقعد هنا إلى الأبد؟ »

فاغضيت عن سؤاله وقلت :

« إن بى حاجة إلى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل وتلك الزعزعة » .

قال : « ولكنك لاتستطيع أن تظل جالساً هكذا . أن أمامنا سير ساعة » .

قلت : « سألحق بكم إذن ، أو أرجع إذا كان لابد من ركوب هذا الزلزال » .

قال : « ولكن لايليق أن تركب حماراً » .

قلت : وقد صار فى وسعى أن أضحك — « فى وسعك أن تعلق ورقة تكتب فيها أنه جواد مطهم » .

قال : « لاتمزح ، قم اركب حمارى هذا » .

قلت : « إذا كان الحمار عالياً فما الفرق بينه وبين الجواد ؟ » .

قال : بلهجة اليائس أو المنتقم — « إذن خذ هذا » .

وأشار إلى جحش قمئ مهين يركبه خادم ، لا سرج عليه ولا لجام له ، فقمت إليه وامتطيته بوثبة واحدةوبلا معين .

واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر ، وبين الألواح،والماء تحتها، متر على الأقل فلماتوسطها الجحش بدا له أن يقف، وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا إلى حافة الجسر — ولم يكن له حاجز — ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر وأنه

بفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى انه كان يريد أن يشرب . فنزلت عنه وقلت له « ياعزيزى أن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك . فإن ثيابى يفسدها الماء وهى غالية إذا كانت حياتى رخيصة » .

ولكنه بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها . فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إلى ، غير أنى لحقت به بعد أن اجتاز الجسر ، وقلت له « تعال لا تهرب منى يا صاحبى » وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعترض أو الاحتجاج أو الأفلات .

ويطول بنا الكلام إذا أردت أن أصف كل ما امتعنى به من الفكاهات العملية، فقد كان فيه عناد وصلف، وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه فى كل ما يلقاه من شجر أو عربة أو حائط، وكان ربما وقف وغرس رجليه فى الأرض . ونام . وتعودت منه ذلك وفطنت إلى أنه ذو مزاج مستقل ،فكنت أتركه واقفا حتى ينتبه من هذه الاغفاءات ، أو يعود إلى من سبحات عقله السقراطية ، فنستأنف المسير وحسبى وحسب القراء أن أقول لهم أنى أسفت على فراقه لما انتهت الرحلة، وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول .

الطفولة الغريرة

•

أظننى كنت فى الرابعة أو الخامسة ، فما أذكر على التحقيق كم كانت سنى ـ والطفل عندنا ـ أعنى فى بلادنا ـ لا يفكر ـ أو على الاصح لا يسمح له أن يفكر فى مثل هذه السن، ويخيل إلى الآن وأنا أدير عينى فى تلك الأيام كأن وظيفة الآباء والأمهات كانت صرف الأبناء عن النظر والتفكير، وإلزامهم الجمود ونهيهم عن كل حركة جسمية أو عقلية. والطفل ـ كما تعلم الآن ـ أكثر ما تكون حيويته فى أعضائه ، فرغبته فى الجرى والوثب وما إلى ذلك طبيعة، وهو أشد من الكبار صبرا على ذلك ولجاجة فيه لقلة ما يشغله غيره ، وهو جديد فى هذه الدنيا فشوقه إلى معرفتها معقول ، ومن هنا مد يده إلى كل ما تقع عليه عينه وتناوله وتقليبه وتحطيمه أو إفساده ، وليس التحطيم أو الإفساد غايته، ولكنها المعرفة ، والآباء يشفقون على أشيائهم من مغبة هذا التناول ، فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها .

ولست أذكر أنى هممت مرة باللعب إلا زجرنى عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدى إلى شيء إلا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضى على به ، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم! فأنا إذا لعبت « شقى » ، وإذا سكنت فلا شك أنى مريض ! وكان ملجئى الوحيد أبى ، هو وحده الذى كان يبدو لى أنه يفهم ! وقلما كنت أجالسه لأنه رجل ، والرجل فى ذلك العصر ، مكانه بين الرجال لا بين الأطفال

والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحـــده، أو مع ضيوفه فى «منظرة» الرجال . حتى القهوة تصنع وترسل إليه . فهو فى منزله وحده ، وكل من فى البيت يخدمه حتى أمى . بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً . فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع، والأطفال يحملون إلى مكان قصى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم . ثم يفتح عينيه ويتثاءب فينقلب السكون جلبة ، هذه تجىء بالطشت والأبريق للوضوء ، وهذه تعـــد الشاى ، وتلك تهيىء الطعام ، وكأنما يتعمد كل إنسان أن يسمعه صوته ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته ، فالأصوات عالية ، والنداءات متتابعة ، «والقباقيب» ملبوسة والأرجل تدب ، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وآيباً عشر مرات قبل أن يمد يده اليه ، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ويتوعد وينذر ، حتى إذا ظهر ـ وهو أدنى شيء منهم جميعاً ـ انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الأهمال والعمى بما يفتح الله به عليه . ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاف لأبى وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الابطاء ، عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها ، والتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار .

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا ، وكانت أمى تطلب الطشت من الحمام والأبريق على بابه، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الأبريق، فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصيح بها

« أين وضعت الأبريق يا ملعونة ؟ »

فقالت الصغرى فى ذلة وخوف «لم أره والله ! »

فصرخت الكبرى « كيف لم تريه ؟ لقد وضعته بيدى فى الحمام فهل أخذه العفاريت ؟! »

الصغرى « والله العظيم والله العظيم .. وحياة النبى .. »

الكبرى « لا تحلفى يا ملعونة . سيصيبك العمى يوما من الأيام من كثرة الحلف كذبا . أقول لك هاتى الأبريق وإلا صار يومك أسود ؟!»

أمى : بصوت عال جدا ـ « اجننتما ؟ ما هذه الضجة ؟ ألا تستحيان أن تتصايحا هكذا وسيدكما فى البيت ؟ »

الكبرى : يا سيدتى لقد أضاعت هـــذه البنت الابريق . وانظرى كيف تحلف انها لم تره .

أمى : اين يا بنت الأبريق ؟

الصغرى : والله النعظيم والله العظيم .. والله .. و ..

امى : الم اقل لك كفى عن الحلف .

ودفعتها بيدها واطلقتهـــا لتبحث عن الأبريق فدخلت المسكينة ووقفت بباب الحمام واسندت كتفيها إلى الحائط ولكنها لم تبحث عن الأبريق ، وكان بجانبها عن مسافة شبرين منها ، بل وقفت تبكى لا كما يبكى النـاس ، بل بحنجرتها دون عينيها . اعنى انها كانت تخرج مثل صوت الباكى المعول ولكن عينيها جامدتان .

ودخلت فى أثرها الخادمة الأخرى وأمى وراءها . وعلا الضجيج وكثر الكلام ، وكنت أنا أشاهد هذا كله وأرى الابريق ، ولكنى كنت مفتونا بهذا الحوار الذى يدور على لا شيء ، فلم أدلهم على مكانه، ولو إنى تكلمت لضاع صوتى الصغير ولغرق فى طوفان هذه الضوضاء ، على إنى لم البث أن شعرت كأن رأسى سيتهشم وعجزت عن احتمال هذه الحال ، وبدا لى — لسوء الحظ — إنى حقيق بأن يكون لى من احترام النساء للرجال حظ ولو قليلا قياسا على ما أراه من اجلالهن لأبى،فصحت بهن — وامى فى جملتهن — .

« يا للعمى ! ألا ترين الابريق وهو تحت انوفكن ؟ ما هذه الضجة الفارغة ؟ لقد أوجعتن رأسى ! » .

فكان جزائى — كما أسلفت — علقة .

* * *

نعم كان المنزل جحيم الطفل . فهو مطالب بأن يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملتهم . وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ فاللعب عيب، والصمت عيب، والتهويم فى المجلس عيب، والارق عيب ، والاستفهام عيب، ولاشيء فيما يرى الطفل محمود مشكور . ماتت بنت خادمتنا — وكانت فى مثل سنى — ولم أعلم أنها ماتت — لأنهم أجلونى عن البيت وارسلونى إلى عمتى ، فلما عدت ولم أجدها سألت عنها لأنى افتقدتها ، فكان كل من أستفسر منه عن اختفائها يتجهم لى وينهرنى عن السؤال لأنه عيب . فذهبت إلى أبى ، وكان حليما صبوراً رضى الخلق ، فسألته عنها فأخبرنى أنها ماتت . فعجبت ولم

أفهم كيف تجرؤ أن تموت . فسألني أبي بدوره عن سر عجبي . فقلت له « لأنها صغيرة » .

قال « ولكن الموت ينزل بالكبار والصغار على السواء » .

فألححت وقلت « ولكن يا أبي أنها لا تزال صغيرة فكيف يجوز أن تموت ؟ » .

قال « يابني لا اعتراض على قضاء الله »

قلت مصرا ، « ولكنها صغيرة وهذا عيب »

فضحك ومسح رأسي بكفه فلم أزد الا لجاجة وقلت « يا أبي.هل تسمح لي أن أفهمها أن هذا عيب وانها لا يصح أن تموت ؟ »

قال وقد ضجر على مايظهر، وإن ظل يبتسم «يابني كيف يكون الموت عيباً؟»

قلت مستغربا ـ اليس الموت عيباً ؟

قال « كلا . أنها آجال »

فأعجبني أن يكون الموت آجالا وطربت جداً.ودنوت منه ووضعت كفي على خديه وقلت وقد خيل إلى انى ظفرت بملهاة جديدة « اذن ليس من العيب أن أموت أنا أيضا »

فصاح بي « أعوذ بالله » واكفهر وجهه لا أدرى لماذا « اياك أن تقول كلاما كهذا مرة أخرى »

لا أدري لماذا ! . . . لقد فهمت . . ولكن بعد سنوات،ترى الم يكن في الوسع اختصارها .

وصار لي اخ صغير . لم اره حين جاء لانى اجليت عن البيت، فلم أكن

فى استقباله . ولما عدت وأخبرونى وسألت عنه من أين جاءوا به قالوا، أو فهمت أنا منهم ، أنه من عند الله ، وأن الله هو الذى يرزق الآباء، فاقتنعت ورحت بعدها أتوقع أن اتلقى كل يوم من عند الله اخا جديداً وساءنى أن يرزقنى الله اخا لا اختا

فسألت أبى :

ـ لماذا لم يرسل الله لى اختا بدلا من هذا الأخ ؟

قال ـ هذة مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها

قلت ـ ولكنى أريد اختا . .

فقال ـ دع الله

فلبثت بعدها أدعو الله ولا سيما قبيل النوم ، وكنت أتوقع فى كل مرة أن أصبح فأجد الأخت المرجوة تحت السرير أو فى الدولاب أو بجانبى ، ولكن الله لم يستجب لى قط

●

وكان فى البيت اثنان لا اراهما أبدا وان كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى، وهما « الست » و « الافندى » فأبى يقول للخادمة مثلا قولى كذا أو كذا « للست » ، ويتحدث فى أوقات شتى ولا سيما حين يكون معه رجال من اقربائنا عن هذه « الست » ، وأمى لا تفتأ تقول « الافندى قال ـ أو الافندى أتى ـ أو الافندى خرج » فأعجب اين هما ؟ ولماذا لا أراهما ؟ وأصعد إلى السطح باحثا عنها فلا أجدهما ، وادخل كل غرفة فلا اهتدى إلى اثرهما ، وأنزل إلى فناء الدار فلا التقى بهما . اين ينامان ياترى ؟ ماذا يأكلان ؟ الا

يظهران أبدا ؟ وعلى كثرة مافكرت فى أمرهما وبحثت عنهما لم يفتح الله على بخير من رانهما لا محالة يلبسان « طاقية الاخفاء » ، ولشد ما كان يلج بى الشوق الى رؤيتهما، يدركنى العطف عليهما أيضا ! وكثيرا ما كنت أقوم من النوم على صوت - لعله موهوم - فاتخيل انهما داخلان، وأرهف سمعى وانشر أذنى فى الليل وأفتح عينى جدا وأحدق فى الظلام، وقد قمت على ذراع ، وربما تسللت الى كل غرفة لعلى أبصرهما ، ناسيا فى سبيلهما مخاوفى وما تثيره الظلمة ، فى نفوس الاطفال.

واتفق مرة اننا كنا جميعا جلوسا فى غرفة ابى وكان مريضاً - فدخلت الخادمة فأسرت شيئاً إلى أمى فقالت لها هذه « اخبريه أن الافندى مريض » فصعدت روحى إلى حلقى وشعرت بالاسف على « الافندى » والالم له ، والفرح أيضاً لان مرضه قد يتيح لى أن أراه أخيرا ..

ودنوت من أبى - وكنت عليه أجرأ، فابتسم لى ومد يده فوضعها على كتفى فاطرقت برهة ثم رفعت عينى اليه وقلت -

« بابا »

قال « نعم » ، وجذبنى اليه فى رفق وعطف

قلت « كيف صحه الافندى »

فضحكوا جميعاً - ابى وأمى وجدتى وعمتى و . . لا أدرى من أيضاً . وقبلنى أبى ، ولكنه لم يجبنى لا هو ولا سواه . فلم أفهم هذا، وأحسست بالغيظ ، ورحت أنظر فى وجوههم نظر المحنق . ثم تولانى العناد، فعدت إلى أبى أسأله عن صحة « الأفندى »، فنظر أبى إلى أمى فتناولت هذه يدى وقالت «عيب الأولى كانت عفوا . وقد فاتت ولكن لا يليق أن تكررها»

فكدت أجن . لماذا يخفون عنى الأفندى والست وهما يراهما كل إنسان سواى ، ويحادثهما على ما يظهر لى مما أسمع ؟ لماذا أحرم وحدى أن أبصرهما وأكلمهما

فقلت « ولكنى أريد أن أرى الأفندى »

فقالت أمى « عيب قلت لك عيب »

وفى هذه اللحظة دخل جدى على مهل ، ويظهر أنه سمع أمى تنهرنى وكان شديد الحنو على فسأل « ماله ؟ »

فقصوا عليه الحكاية . فابتسم وأجلسنى على ركبتيه ولم يزل بى حتى سرى عنى ، وجفت دموع الغيظ التى كانت تترقرق فى جفنىَّ فشرحت له المسألة وكشفت له عن جهودى التى بذلتها فى الأهتداء إلى . « الست والافندى » ولم يبق فى الغرفة أحد لم يضحك منى . ولكنى كنت فرحا باصغاء جدى وتشجيعه لى ، وما كان يبدو على وجهه من الاغتباط والجذل ، فلم أعبأ بالضحك ، ولما فرغت سألته « والان هل ستخفيهما أنت أيضاً عنى ؟ »

قال « لا . لقد أخطأوا معك يابنى . وكان حقهم أن يدلوك »

واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتنقيب فقد عرفت « الست والافندى » وضحكت أيضاً لما عرفتهما .

مقتطفات من مذكرات حواء

•

(تنبيه) هذه المذكرات موضوعة على نسق (مذكرات آدم) للكاتب الأمريكى مارك توين (ساموبل كيمينز) وهى تشبهها فى الأسلوب الفكاهى، وقد جاريته فى أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها ، مثل إنكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع من جنبه ، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالانوثة - وعدم فهمه الامومة ألخ . ألخ . وقد أردت أن أمثل بهذه المذكرات لما يأتى :

أولا : أن الخلود يمتنع معه الاحساس الجنسى، وأن قضاء الموت هو الذى يثير هذا الإحساس وينشىء غيره أيضاً .

ثانيا: أن المرأة مخلوقة للنوع فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها فى الرجل .

ثالثا : أن المرأة أقدم معجم للغة ، فهى التى وضعت الاسماء ونحتت واشتقت وصقلت الألفاظ بكثرة الاستعمال .

رابعا : أن الخجل من مقتضيات المعرفة والإدراك .

خامسا : أن الأمومة أقوى وأبرز من الأبوة، لأن المرأة هى الاداة لحفظ النوع .

وقد تناولت هذه المعانى من قبل فى مقالات عدة ، نشر بعضها فى

(حصاد الهشيم) مثل (الجمال فى نظر المرأة) و (مقتضيات الخلود) وفى (قبض الريح) مثل (المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان) ومقالات أخرى نشرتها فى (السياسة الأسبوعية) ولم تجمع بعد فى كتاب .

١ — فى الجنة

السبت . وجدت أن ما أغرانى به آدم من كتابة المذكرات اليومية قد شغلنى عنه، وأتاح له أن يطوف فى الجنة وحده ، وهو لا يفتأ يصبحنى بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها ، وينصح لى بأن أكتبها قبل أن أنسى ما حدث ، ولا أكاد أشرع فى الكتابة حتى أراه ينسل ويذهب لا أدرى إلى أين ، ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب إلا فى الليل بعد أن ينام .

الإثنين : آدم لغز لا أكاد أفهمه ، لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم ، ومن قوله أنه لا يشعر بالحاجة إلى اسم ما ، ولما قلت له يوما إن اسمى حواء قال (ربما !) أليس هذا منه عجيبا ؟ وأعجب من ذلك أنى قلت له أن عليه من الآن فصاعدا أن يدعونى باسمى ، فانه أعذب فى أذنى من (هش هش) التى لا يزال يفتح فمه بها على ، فقال أنه يقصد — حين يصيح بى (هش هش) ، أن أذهب عنه لا أن آتى إليه ، وأنه لا يحتاج أن ينادينى أو يدعونى لأنى لا أكاد أفارقه ، فمن العبث أن يكون لى اسم إذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبداً ، فلما احتججت عليه بأن لكل شىء فى الجنة اسمه الذى يعرف به ، زعم انى أنا التى اخترعت هذه

الأسماء وأطلقتها على مسمياتها ، وأنه لايدرى لماذا اجشمه حفظ هذه الاسماء كلها وتصديع رأسه بها ، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الاسماء منطبقة على الأشياء أو موافقة لها ، ودليله على هذا أنه ما من حيوان يجيبنى حين أدعوه باسمه ، ولكن هذا مع ذلك لايعنيه، وإذا كان يروقنى أن أكلف نفسى مشقة التسمية فانا وما اخترت لنفسى ، غير أنه يرجو منى إلا اشركه فى هذا العبث .

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذا الكلام فحز فى نفسى وآلمنى فبكيت وتوجعت ، ولشد ما كانت دهشتى حين نهض آدم ودنامنى ورفع وجهى إليه وجعل يتأمل عينى ! بل لقد هم بأن يضع أصبعه فى عينى،فنحيت يده عن وجهى وقلت له وقد غيض الغيظ والغضب عبراتى « ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تفقأ عينى ؟ » .

فادعى أنه لا يفهم كلامى وزعم أنه إنما كان يبغى أن يرى من أين يجىء الماء الذى يسيل من هذين الثقبين فى وجهى . وقال أنه لم ير حيوانا أخر غيرى يفيض الماء من ثقوب وجهه ، فصدفت عنه وبى من الألم مالا أحسن وصفه . فلم أر أنه عبىء بصدى عنه شيئا، وطال انتظارى أن يعود إلى ليعتذر، فخرجت من الكوخ أطلبه فالفيته ممسكا هرة يحاول أن يعصر لها عينيها وهى تجاهد تريد التخلص من قبضته القوية ، فاختطفتها منه وسألته (ما هذ الذى تصنع ؟) .

فلم يجبنى على سؤالى ، ورفع إلى وجها قرأت فى أساريره الدهشة والملل وقال : « هاها ؟ أو جئت ورائى ؟ » .

فاعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجيء الماء إلى هذه الثقوب التي أسميها العيون . فأيقنت أنه لم يكن يروم أن يفقأ عيني ، وصفحت عنه وزدت تعلقا به .

الثلاثاء : لا يزال آدم يضحك مني كلما خرجت إلى البركة لانظر فيها إلى نفسي، ولا سيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالي في صقالها . ليته ينظر في مائها الصافي مرة . اذن لكف عن هذه السخرية . وما أنسى يوم قمت فألفيتني راقدة في ظل وارقة الاظلال لفاء ، وكيف ذهبت أعجب لنفسي : من عسى ان اكون ؟ واين انا وماذا جاء بي إلى هنا ؟ وكيف كان ذلك ؟ وكان على مقربة مني كهف يتدفق منه الماء إلى بركة . فقصدت إليها وانطرحت على بساط الروض،وجعلت انظر في الماء وإذا تحت عيني — في جوف الماء — صورة تنحني وترمقني ، فتراجعت فارتدت مثلي ، فعدت أنظر ، فعادت تحدق في وجهي بعينين جميلتين يفيض منهما العطف والحب ، فلولا صوت رخيم هفا به النسيم إلى « ان ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك » ، لما انصرفت عن الماء إلى هذه الساعة ، وان آدم لقوي وجميل ، ولكن ذلك الخيال الذي يتراءى لي في الماء الين واعذب .

الخميس : كل يوم يبدو لي من آدم خلق عجيب . كنت الومه واشكوه إلى نفسي واؤنبه على هروبه مني واختفائه بين الأشجار ، واقول له فيما اقول « اني انسى كل شيء حين اكون معك، حتى الجنة لا اباليها ولا احفل ما فيها ، وان نسيم الصبح حين يهب بأصوات العصافير لذيذ ، وانه ليس

اطيب من ريا الأرض بعد ان يجودها من السماء هاضب ، ولا ارق من مقدم الليل علينا بنجومه الزهر وقمره الساري ، ولكن ما من شيء في الأرض ولا في السماء يروقني او يفتنني إذا لم تكن معي . فالعجب لك كيف تطاوعك نفسك على مجافاتي والفرار مني وانا بعضك ؟ » .

ففتح عينيه جداً وقال « بعضي ، ماذا تعنين ؟» .

فقلت : « نعم بعضك ! الست قد خلقت من ضلع في جنبك الأيسر؟» فوثب إلى قدميه وقال :

« من ضلع في جنبي ؟ من قال هذا ؟ »

قلت « انها الحقيقة » .

فرفع يده إلى صدره وجعل يمر بأصابعه على ضلوعه ويتحسسها بعناية، ثم نظر إلى وقال : « هذا غير صحيح . أن ضلوعي كاملة لا نقص فيها وقد عددتها أمامك »

الجمعة ـ قال لي آدم إن في هذه التي اسمها « جنة عدن » أشياء كثيرة تسترعي النظر والسمع أيضاً ، ولكني لا أنتبه إليها لأن لساني لا يكف عن الدوران،وأضاف إلى ذلك أني أنا المخلوق الوحيد الذي لا ينتفع بعينيه وأذنيه . واني أفسد عليه الطواف في « الجنة » وأحيل المقام فيها كالمقام في « ذلك المكان الآخر » .

وقد اغتنمت هذه الفرصة ونبهت آدم إلى أني « أنثى »، وإن عليه أن يكف عن مخاطبتي أو الإشارة إلى بضمير المذكر ، فهز رأسه وقال : أنه

يشك فيما أقول، ولكن الأمر لا يعنيه وإنه سيتحرى مرضاتى ما دام إن هذا يسرنى ، عسى أن يكف هذا الرضا من غرب لسانى الذى لا ينفك يعترض .

السبت ـ لم أكن أنوى أن أكتب اليوم شيئاً . ولكنى عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العبارة « لقد كانت أيام الأسبوع كلها جمعاً قبل أن يأتى هذا المخلوق الجديد الذى نفى عنى الراحة وهدوء البال . . »

« بقية الكلام رديئة . ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال . على أنى مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكنى اعتذر للقراء فانى ، أعلى بأبينا الشيخ عينا وأعمق اجلالا له من أن أسمح بنشر ماخطته أمنا المسكينة عنه فى ساعة من ساعات الغضب . »

الأحد ـ مواظبة آدم على الكتابة تدهشنى ، وتعليله لذلك ابعث على الدهشة . فهو يقول إنه يقتل الوقت بذلك وينفى عن نفسه الملل . الملل حقاً ؟ ألست معه أونسه ؟ .

الثلاثاء ـ كان اليوم مطيرا عاصفاً فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ ، فتركته ومضيت إلى البركة غير أن المطر المنهمر شوه صورتى جداً ، فانكفأت عنها آسفة ، وأدركنى العطف على جرو صغير وجدته فى طريقى فحملته معى إلى الكوخ ، ولم أكد أدخل حتى انتهرنى آدم وأنبنى على ما يسميه حماقة الخروج فى مثل هذا الجو والرجوع بقدمين مثقلتين بالأوحال وتوسيخ الكوخ بها . ثم سألنى عما أحمل

فقلت له إنه جرو صغير أشفقت عليه من المطر والبرد . فقال « لست أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها إلى صدرك وتقبيلك أياها ومناجاتها بأصوات لامعنى لها ، وازعاجى بعوائها ونباحها وموائها . » ثم انتزع منى الجرو وقذف به إلى الخارج .

الاربعاء - لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التى رمانى بهااليوم آدم . كنت عند شجرة تين أقذف ثمرها بالحجارة . وحانت منى التفاتة فإذا آدم يرشقنى بهذه النظرة فكأنه سمرنى بها إلى الأرض ، ثم دنا منى وهويقول « هكذا ترمين ! » وتناول حجراً وراح يقلدنى ويتثنى ويتعوج ويلقى الحجر فيقع عند قدميه . وبعد أن شبع من الزراية على والسخرية منى اعتدل وقال « هكذا يجب أن تفعلى» وسدد ساعده القوى وقذف الحجر فانطلق من يده يقول « فووو » وهوى» التين إلى الأرض وتركنى ومضى .

الخميس - يقول آدم إنه أخطأ حين علمنى (الرماية) كما يسميها ويزعم أن تعليمه اياى أغرانى بأشجار الفاكهة وإنى الآن أفرط فى أكلها وإننا مهددون بنفاد هذا الغذاء أو (بالقحط) كما يقول على طريقته فى المبالغة . وإنه على أى حال لا يتوقع خيراً من وراء حبى للفاكهة .

السبت - مر اليوم بلا حادث يذكر سوى إن آدم وجدنى أتسلق الشجرة المحرمة فجذبنى بعنف وحذرنى من الدنو منها .

الأحد - قمت من النوم فلم أجد آدم فذهبت أبحث عنه فلم اهتد إلى مخبئه . وهذه رابع مرة يهرب فيها منى.فعدت إلى الكوخ متعبة وارتميت

على الفراش الذى صنعته له من ورق التين، إلا فى سبيل الله ما كلفت نفسى من أجله ! :

الاثنين ـ لا يزال آدم هارباً وقد حفيت قدماى . واقلقنى هذا الغياب الطويل الذى لا عهد لى ولا له به . أتراه ضل الطريق ؟انه غريب الأطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة

الاثنين ـ بعد أسبوع كامل قضيته فى البحث وجدت آدم فى أقصى الشمال . لقد بنى له كوخا صغيراً هناك : له الله فلولا الحية دلتنى على مكانه . . . ولكن صبراً .

الثلاثاء ـ لم أكن احسب ان الحية تتكلم وتا الله ما أطيبها وأعذب لسانها واحلى حديثها . لا اكاد اضمها الى صدرى حين يصافح سمعى قولها « يافتنة الدنيا ويا أجمل ما فى السموات والأرض ويا ام البشر » ولكن آدم يكرهها ويخافها ويحذرنى منها، ويقول انها نذير سوء وان كان لا يكتمنى سروره بان وجدت من يحادثنى غيره .

الأربعاء ـ كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرق ويداه خلفه ويتمتم بكلام غير مسموع وليست هذه عادته فما رأيته يفعل ذلك من قبل. فتواريت خلف شجرة أراقبه ، فلما دنا منى سمعته يقول لنفسه « وماذا اخشى من الموت اذا أكلنا من الشجرة وحل الموت فى الدنيا ؟ ان الموت مرغوب فيه من اجل بعضهم على الأقل »

فمن بعضهم هذا ؟ سأسأله عنه .

الخميس ـ قالت لى الحيه انها لم تكن تتكلم ولم يكن لها عقل ولكنها

مرت بشجرة استطابت رائحتها فصعدت إلى أثمارها والوحوش ترمقها وتمد اعناقها فتقصر عن بلوغ الثمر ، وكانت جائعة فالتهمت منها ما لا يحسب الحاسب فتغير كل شيء في عينها، ووجد لسانها السبيل إلى الكلام، وان كان قد بقي لها شكلها ،فوجهت عقلها إلى التفكير والتدبير في كل ما في السماء والأرض وما بينهما واضافت إلى ذلك ـ شكراً لها ـ ان كل ما في الدنيا من خير وجمال يجتمع في وجهي الملائكي ، وانها لم تر لي نظيراً وان هذا السحر الذي في عيني هو الذي جرأها على الظهور لي واغراها بادمان النظر إلي . فسألتها عن الشجرة أين هي فلما دلتني عليها إذا بها الشجرة المحرمة ، فأنبأتها بأن ثمرها محرم علينا . فأعربت عن استغرابها بان تحرم علينا فاكهة الجنة ، فبينت لها ان لنا ان نأكل ما نشاء من فاكهة الجنة ما خلا ما تحمل هذه الشجرة والا كتب علينا الموت . فقالت الحية كلاما كثيرا معجبا مطربا شربته اذناي بلهفة ،فجعلت ارمق الشجرة ،ومنظرها وحده غواية ، وفي اذني من الحية عذوبة حديثها ، ومضى الوقت وأنا أستمع إلى الحية واري الشجرة موقرة بحملها الناضج واشم عبقه الطيب . وعضني الجوع فامتدت يدي إلى الثمرة فقطفت واحدة ثم ثانيه ثم ثالثة فتفتحت ، عيناي وابصرت العري الذي انا فيه ،وقلت لنفسي في اية صورة ابدو لادم ؟ اؤنبئه بما وقع لي وطرأ على من التغير واشركه معي؟ ام انفرد دونه بالعلم واسد بذلك النقص الذي مني به جنسي حتى اساويه وربما فقته ، فاني ارى ضعفي يسترقني له ؟ وهذا حسن ، ولكن الله هو الذي رآني وعلم اني عصيته ؟ والموت لا بد آت بعد ذلك ولا مهرب منه الآن ، وهكذا سأذهب أنا ويخلق الله لآدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد بجواره . كلا . كلا إني أحب آدم واستطيع أن احتمل كل صنوف

الموت معه ، ولكنى لا أقوى على الحياة بدونه .

وثنيت خطواتى إلى الكوخ ولكنى لم أجد آدم، فدرت فى الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر ، واضطررت إلى الاختباء مراراً لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ولم تعد تطيعنى كالعهد بها ، ففررت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام ، واصبحت الامور فيها فوضى ، وجاوزت حدودها إلى الأرض .

الأربعاء - بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذى قطعته من الشجرة المحرمة مثقلا بالتفاح الشهى ، فنظر إلى نظرة استغراب وسألنى عن هذا الورق الذى أستر به جسدى فقلت ستعرف هذا متى أكلت من التفاح ، فانتزعه منى وعرانى خجلت فقال : لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلى، فركبت حماراً فارها لم يزل يعدو بى حتى عدا عليه نمر فنجوت بجلدى ولما أكد ، ورأيت المقام فى هذه الجنة مستحيلا فخرجت منها وسيان عندى الآن أن آكل أو لا آكل فهاتى ما عندك فانى جوعان .

وقضم قضمة وجعل يتذوقها ويقول ما أطيبها والله وإن كانت فى غير أوانها . ثم نظر إلى نفسه فأدرك أنه عار واستحيا فستر نفسه بالورق الذى نزعه عن جسدى ونظر إلى ثم أرخى طرفه وهو يقول « ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا ؟ اذهبى واسترى نفسك » ففعلت .

الخميس - اعترف لى آدم بأنه كان لا يحسن معاملتى ونحن فى الجنة وقال إن عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً فى تلك الجنة

وقد كان يخشى ألا الحق به ويتوقع أن تضنيه الوحدة وتسقمه الوحشة وقبلنى « وعرفنى » لقد خسرت الجنة ولكننى ربحت آدم ...

٢ — بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء - تالله ما أقسى آدم فى هذه الأيام ! إنه لا يفتأ يعنفنى ويلعننى ويحمل على من أجل أن أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة ، وهو هو الذى اثنى على ذوقى لما أطعمته من التفاح ، وقال لى فيما قال « هاتى ما أطيب هذه الفاكهة التى حرمناها ، وإذا كان هذا طعم ما حرم علينا فليت الشجرة المحرمة كانت عشراً ! ؟ وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام الشهى ، فما أعرف جمالك قبل اليوم ألهب حواسى كما يفعل الآن » .

ولم يدخر نظرة حب ولا تجميشة غزل ، وأعدانى وألهبنى فقاذفته ناراً بنار ، ثم تناول يدى ومضى بى إلى غدير ظليل الشاطىء فاضطجعنا على البساط السندسى ، ونثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر - الفل والياسمين والنرجس والقرنفل - وروينا من الحب ، ثم عقد النعاس اجفاننا فنمنا ملء عيوننا . وياليتنا لم نقم ! فقد غدا على يلومنى ويتوجع مما صار إليه ، ويحن إلى ما كان فيه ، فقلت له أنه لو كان مكانى لفعل مثلى ، وذكرته بأنه كان فى الجنة يرمى إلى بالزمام ويلقى حبلى على غاربى ، وسألته لماذا تركنى أفعل ما بدا لى ولم يأمرنى - وهو الرجل وأنا المرأة - أن أجتنب الشجرة ولا أقربها لقد كان سلوكه مغريا لى ومشجعاً على اقتطاف هذه الثمرة المحرمة .

فثار بي يلعنني ويقول « أهذا جزاء حبى لك أيتها المرأة الكنود ؟ الم يكنْ يسعني ان ادعك وحدك للموت الذى جلبته على نفسك، وأن انجو بنفسي فلا اتبعك ؟ اما والله لانت والحية سواء، وانك لألام منها وابغض،وما ينقصك إلا ان تكونى على مثل صورتها والوانها ليحذرك الخلائق جميعاً ولتتقيك ولا نغتر بصورتك السماوية ! ألا لماذا شاءت حكمة الله ان يخلق هذه البدعة ولم يشأ ان يخلق الناس كلهم ذكرانا ويملأ الدنيا بهم إذا كان لا بد من خلقهم ؟ »

فبكيت واسترحمته وعكفت على ركبتيه اقبلهما وامسح عليهماوجهى، فرثى لى ولان لى قلبه ، فتشجعت وادليت إليه برأيين يكفلان لنا الراحة ويقيان ذريتنا المصائب التى كتبت عليهم بذنبنا. فسألنى عنهما فقلت ـ الراى عندى ـ ما دام الموت لامفر منه الآن ـ ان ننتحر ، فنستريح ونترك الدنيا كما كانت، لا يعمرها احد من نسلنا ،او ان نتحرى ألا نجيء إلى الدنيا بنسل ، فنحرم الموت حقه ونقضى عليه هو بالموت جوعاً .

فقال آدم : يا بلهاء أتحسبين أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك ؟ لقد أخرجتنا مشورتك من الجنة وهوت بنا إلى هذه الأرض ، فأين يا ترى تقذف بنا مشورتك الجديدة ؟ إذهبي . إذهبي !

بعد شهر ـ لست امـــل التجواب فى هذه الغابة الكثيفة . فإن لها لسحراً شديد الأخذ . وقد ضللت فيها أمس وإن كنت لم أبعد عن الكوخ أكثر من فرسخ ، فنشط خيالى وراح يرينى أشباحاً ههنا وههنا بين الأشجار الغليظة الذاهبة فى الهواء التى تحجب الشمس فلا ينفذ منها

شعاع . فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسى روح المكان، فنعق فوق رأسى غراب ففزعت ثم غضبت على نفسى ، لأنى فزعت ورفعت طرفى فأبصرت الغراب على غصن فوقى يصوب نظره إلى،فاستحييت أن يرانى كأنما كان قد فاجأنى فى خلوتى ، فحدجته بنظرى فحدجنى بنظره ، ولم يحول منى عينه ، وكان كلانا صامتاً لا يقول شيئاً ، ثم تقدم الغراب بضع خطوات على الغصن ليكون أقدر على تأملى،ورفع جناحيه ودلى رأسه من بين كتفيه ، ونعق مرة أخرى نعقة آحسست أن لهجتها مهينة مبطنة بالزراية،فلو انه كان يتكلم مثلى ومثل آدم ومثل الحية لما قال لى بأفصح مما قال « ماذا تصنعين هنا بالله ؟ » وليس هذا من شأنه ولا كانت هذه الغابة له ، وما من حقه ان يخاطبنا بمثل هذه اللهجة ، ولكننى لم اردعليه استنكافاً منى للمنابذة مع غراب اسحم ، وترفعا عن المهاترة معه ، فلبث برهة يدير عينه فى ، وراسه ممدود إلى من تحت كتفيه ثم قذفنى باهانتين اخريين لم افهم معناهما على وجه الدقة ، وان كانت دلالتهما واضحة . فلم اشأ أن اجاريه فى بذاءته وامسكت عن دفع الاهانة . ويظهر ان حلمى أطمعه فقد رفع راسه واطلق فى الغابة نعقة تبينت انها نداء فقد اجابه غراب آخر من قلب الغابة ، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف، حتى ترك الغراب المدعو ما كان فيه وطار إليه وحط إلى جانبه فوقى، ومضى الغرابان الأسودان يتناعبان عنى ولا يحفلان وجودى ، فلو انى كنت بعيدةعنهما بحيث لا اسمعهما ولم اكن تحت اعينهما لما اساءا الأدب فى حقى إلى هذا الحد، فخرت وارتبكت، ثم بدا ان ادعهما وامضى فى سبيلى واحسب ان الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتى فقد مطا عنقيهما وراحا

يضحكان منى ويرسلان خلق الشتائم والإهانات حتى تواريت عنهما ، وإنى لأعلم انهما غرابان لا أكثر ، ولكنه من المؤلم على كل حال ، بل مما يكوى غرور الإنسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتماجن عليه ويصيح به « ما أطول شعرك ؟ » أو أليس لك ثوب تلبسينه غير هذا الجلد القديم ؟ ارفعى ذيله فانه يكنس الأرض ويثير الغبار » .

ومن الغريب أنى ألفيت نفسى عند باب الكوخ قبل أن أفكر فى الطريق الذى أسلكه ، وهكذا اهتدت رجلاى بعد أن ضل رأسى . لقد كنت أهم بالبكاء ولكن فرحى بالرجوع سالمة أنسانى الدموع .

بعد أسبوعين — آدم يحمل على ويرهقنى بالعمل ويكتفى هو منه بالإشراف . ولا أدرى ماذا يكلفه « الاشراف »، ولكن الذى أدريه إنى مستعدة أن أقوم به عنه وأن أدع له ما أنا فيه، وقد ثقلت وأرانى أميل إلى التمرد ،وسأدعى المرضى غدا فإن لم تصلح الحال بُعد فسأهرب واختفى فى بعض الادغال ليعرف قدرى .

بعد خمسة أيام — هربت ثلاثة أيام ثم لم أطق البعد عنه فرجعت إليه وادعيت انى كنت تائهة، وقلت انى منهكة ولا أكاد أقوى على النهوض، فخرج آدم متذمراً وغاب عنّى اليوم كله فكدت أجن من الشوق إليه، وتبت من ذنبى واعترفت له بالحقيقة .

بعد ثمانية شهور — سميته قابيل ، وهو حلو أحمر لاشعر عليه غض اللم وأكاد من فرحى به وحبى له أكله ! وكان آدم قد خرج للصيد فلما عاد بعد أيام سألنى عنه ما هو ؟ فلم أدر كيف أقول وحملته إليه.

وأدنيته من فمه ليقبله، فظن انى أقدمه له طعاماً، ونحى وجهه وصدنى بيده وقال : أوحش أنا حتى اكله حياً ؟ ولما قلت له انى « وضعته » وأنا عائدة إلى الكوخ لم يصدقنى وزعم انى «وجدته» وقال إن به مشابهة منى ولكنه صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد. وتناوله وجعل يقلبه ويفحصه فبكى وصاح فاختطفته واحتملته وضممته إلى صدرى ولاطفته حتى ثاب إلى السكون .

ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقة أن أسجن هذا الحيوان معنا ، وانه انما يبكى ويصيح ويخرج هذه الأصوات المنكرة لأنه يريد أن يعود إلى جماعته، وهم بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت وراءه وصددته. فقال آدم إنه لا يفهم سلوكى هذا وإنه لم يألف منى هـــذه العناية بالحيوانات الأخرى .

من مذكرات آدم

« لقد تغيرت حواء حتى لأكاد أنكرها ، مذ وجدت هذا الحيوان الغريب الذى حفيت قدماى على غير جدوى فى البحث عن واحد آخر من مثله ، فهى لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تعنى حتى باعداد الطعام . ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم إلى صدرها أو محمول على كتفها ، وهو لا يكلفنا شيئا لأنه لا يأكل ولا يشرب ، وهذا أغرب ما فيه . وأحسب حواء قد جنت فانها لا تفتأ من حين إلى حين تلقمه ثديها فيعكف عليه بفمه الفارغ كأنه يأكل ولا

شيء هناك، فليس أجن منها سواه ! وما أغرب منظرها وهي تداعبه وتناجيه وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك ، ولم أر قبل هذا حيواناً يضحك . لقد حيرني جدا هذا المخلوق العجيب الذي تسميه حواء (قابيل) والذي لا أدري ماذا هو ؟ فهو ليس منا إذ كان لا يمشي مثلنا ولا يتكلم، وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطيران ، وليس من الحيوان فان جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل ، وأكثر ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه في الهواء ، ولست أفهم لغته، ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه إلى ما يطلب فيكف عن الصياح ويضحك وينام ، أما أنا فقد تقطع نومي مذ جاءتنا بهذا اللغز ، سأغافلها يوماً وأسرقه وألقيه في الغابة أو في الغدير فإني في شك منه عظيم .

بعد بضعة شهور ـ لا أزال عاجزا عن فهم هذا اللغز الذي كنا في غنى عنه والذي يشرد عني النوم ، ولم استطع أن أسرقه لأن حواء لا تتركه لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءتنا ، وكان في أول الأمر لا ينفك مستقلياً على ظهره فالآن يحبو على يديه ورجليه وقد يباغتني وأنا نائم فيضع يده الصغيرة في فمي أو يقبض على أنفي أو يجذبني من لحيتي ، ليست حواء وحدها المجنونة فسيلحق بها سواها قريبا ،ولقد أشفقت على هذا اللغز وقلت آتيه برفيق يؤنسه في وحدته ويسليه في غربته بيننا فجئت بدب صغير ولكنه لم يكد يراه حتى ريع وملأ الدنيا صياحا فلم أجد بدا من طرد الدب ورده إلى حيث كان .

أي شيء هو ؟ هذا ما يحيرني !! هو قط ؟ لا ! أو دب ؟ ! لا أو قرد؟ ربما ، ولكن أين الذيل ؟ والشعر ؟ سنرى .

بعد شهور أخرى ـ لا يزال هـذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ويمشى خطوات ثم يقع ، وقد ظهر الشعر فى رأسه وهو كشعرنا نحن لولا أنه انعم واخف واقل سوادا وألين ملمساً ، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكن خيب أملى . وأقول الحق لقد بدأت أخافه فان هذا النمو الشاذ الذى لا عهد لى به فى حيوان آخر يوقع فى روعى إنى لم أر آخر هذه الحكاية . وما يدرينا غدا ماذا يكون منه ؟ وقد رأيت أن الأحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعدا ، وأن أدع حواء وحدها معه ، وليس هـــذا من الشهامة والمروءة فى شىء ، ولكن ماذا أصنع وهى لا تريد أن تفرط فيه ولا ترضى أن تعتاض منه دبا أو قردا ؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحماقتها .

بعد أربعة شهور ـ عدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشى على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده وينطق بما يشبه كلامنا فيقول « بابا ـ ماما ـ أومبو » فهل علمته حواء ؟ لا أدرى ، وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل . ولما كنت سأعود إلى الجبل غدا فسأشير على حواء بأن تكممه .

بعد خمسة شهور أخرى ـ فى كل تطوافى وتجوالى فى الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا اعثر على ند لهذا اللغز ، وحواء تجد فى الكوخ ـ نعم فى الكوخ ومن غير أن تنقل قدما ـ لغزا آخر شبيهاً بالاول من كل الوجوه فهو من فصيلته ولا ريب ، وقد سمته هابيل ، وحسناً فعلت فان اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون اسماهما متقاربين . وقد

سرنى أنها وجدت للغزها الأول مؤنساً ، فما أشك فى أنه كان يألم هذه الوحدة ويحن إلى قومه .

اقترحت على حواء أن تدع لى اللغز الجديد أجرى فيه تجاربى لعلى اهتدى إلى نوعه وأن تجتزى هى بالأول فأبت أن تصغى إلى، ولم تطق كلامى واحتملتها وخرجت، وتوعدتنى بالنزوح عن هذه البقعة من الأرض إذا لم أكف عن التفكير فى ذلك . ولست أفهم ذلك من حواء وما أراها إلا جنت تماما. لأنه إذا كان قد ثبت أن هناك ألغازا كثيرة، وكانت هى قد وجدت منها اثنين ـ وجدتهما وحدها وبلا معين ـ فماذا يضيرها أن تلق إلى بأحدهما وهى لا محالة واجدة غيره فى يوم من الأيام قياساً على ما حدث ؟ الحق أن منطق المرأة غريب . ولم أكن أريد إلا أن أفحصه فى أوقات الفراغ فقد خطر لى من حسن تقليده لحواء ولى أيضاً أنه ربما كان نوعا طريفاً من القرود . ولكن حواء فقدت عقلها فهى لا تعبأ بشيء من هذه الدنيا سواهما ولا تأتمنى عليهما لحظة .

بعد ثمانية شهور ـ قالت لى حواء اليوم وعينها تلمع أنها « ستضع » واحدا آخر، ولم أفهم منها قولها أنها «تضع» هذه الألغاز، وهذه الأكاذيب بعض ما يسخطنى ويثيرنى عليها، ولكنى أحسب المرأة لا تكون امرأة إذا لم تكذب فسألتها عمن أدراها أنها ستجد لغزا جديدا فقالت بالتجربة، قلت : أية تجربة ؟ فمضيت بى إلى ركن مظلم فى الكوخ واسرت إلى بصوت خفيض جدا ـ كأنما كان هناك أحـــد يسمعنا ـ أن اللغز معى الآن . فنهضت مذعورا وقلت معك كيف ؟ ودرت حولها انفضها بعينى فلم أجد معها شيئاً . فقالت : إنه فى جوفى . فارتعت وقلت . اتراك يا .. قدأ كلت

أحدهما ؟ وتراجعت عنها فضحكت .. أن حواء تخيفنى . فلن أنام فى الكوخ، معها بعد اليوم .

بعد بضع سنين ـ لقد حللنا اللغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة بنونا . وهم الآن أربعة قابيل وهابيل وبنتان . ولنا العذر إذا كان الأمر قد خفى علينا فى مبدئه، فما سبق لنا بمثل ذلك عهد . وهابيل صبى وديع رضى الخلق وهو أحب الينا من أخيه قابيل الذى أوثر أن يبقى كما كان يوم جاءنا دبا أو قرداً أو غير ذلك مما توهمته فى صدر حداثته . وقد ادركت الآن أن حواء أصدق منى فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبى لها وعطفى عليها . هى التى تنسينى الجنة وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها

عاطفة الأبوة

– ١ –

قلت مرة لزميل من المدرسين الانجليز ، رزق غلاما :

ـ أتحب غلامك هذا ؟

فأدهشه سؤالى ولم يخف تعجبه له ، وتوهم بادئ الأمر أنى أتكلف التشكك ، فلما بدا لى منه هذا الريب فى صدق سريرتى سألته :

ـ أتظن أن فقد الأبناء فى طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا، ويدخلوا فى مداخل الرجال من حيث وقع ذلك فى النفس ؟

قال : كلا . وإن كنت ولله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك .

قلت : وكيف تعلل ذلك ؟

فأطرق لحظة ثم قال : إنى أرد الفرق بين الوقعين إلى مبلغ الجهد والعناء فى تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر، فعلى قدر مانبذل فى تربيته يكون حرصنا عليه وضنننا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده .

قلت : انكم معشر الانجليز هكذا دائماً ، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام ، على أن تعليلك مع ذلك صحيح إلى مدى كبير ، وإن كنت لا أشك أنه كان يسعك أن تهتدى إلى عبارة أخرى غير هذه . والآن سؤال آخر ـ هبك رزقت غلاما ورحلت عن بيتك زمنا ثم عدت وقد

شب الطفل وترعرع وأصبح فتى يافعا ، أيكون شعورك نحوه كشعورك لو أنك كنت إلى جانبه ، تراه فى كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله ؟

قال : كلا .

قلت : أتظن أن من الضرورى لنمو الشعور بالأبوة أن يكون لجهدك الذى تبذله مظهر مادى ، كأن تتولى أنت مثلا الانفاق عليه والسهر على تعليمه ومراقبة تدريبه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجرى هذا المجرى ؟

قال : وكيف يكون الجهد غير ذلك ؟

قلت : ألا يكفى مثلا أن يكون جهد « عاطفة » يحركها ويثيرها قربه منك ؟

قال وما أشك فى أن هذا يكفى .

قلت : نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هى التى تتيح للشعور الأبوى فرصة النمو ، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلا لا يستهان به فى قوة هذا الشعور . وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً ولكن معناه ، أنه يكون كامنا فى النفس فتظهره ، وضعيفاً فتقويه ، وفاترا فتكسبه الحرارة . والأبوة ماذا هى ؟ أليست مظهراً من مظاهر حب الذات والرغبة فى تخليدها بتكريرها وإعادتها فى شخص آخر هو بعضها ؟

قال : أحسبها كذلك . .

قلت : ولكن التخليد معنى ، أو إن شئت فقل إنه وهم وخيال تتعلق به النفس وتتعزى عن الفناء الذى تعلم انه لا محالة مدركها ، ولما كان كذلك فرب نفس تكون أطلب له ـ بطبيعة استعدادها ـ من نواح أخرى غير الأبوة ، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والاعادة ـ إذا صح أن الأبناء صور معادة من الآباء ، وهو غير صحيح ، فما أظن بك ألا أنك

ترى معى أن هذه الاعادة تكون إسرافا لا معنى له، وسفها لاتسوغه حكمة ، وأخلق بالجيل الواحد من الناس أن يغنى عن كل الأجيال التى تتلوه إذا كانت ستجئ مطابقة له غير مختلفة عنه ، وما أحق الطبيعة فى هذه الحالة بأن يحجر عليها .

قال : هذا كله صحيح بل بديهى . .

قلت : أشكرك !

قال : عفوا . إنما أردت أن أسأل عن النتيجة ؟

قلت : أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون فى بعض النفوس أضعف منها فى البعض الآخر .

قال وهو يبتسم : ما أراك جئت بجديد .

قلت : بل أريد أن أقول إن بعض الناس لايصلحون أن يكونوا آباء أو بعبارة أخرى أنهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا (النوع) من هذا الطريق ، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوابغ ونعنى بهم طلاب المجد الأدبى أو الحربى أو العلمى ، فكأن مساعيهم تستنفد حيويتهم وتردهم غير صالحين لغيرها ، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الأعظم من الناس وهذا السواد هو الذى يعمر الدنيا ويحفظ النوع الإنسانى فيها .

• • •

والناس أكثرهم لايفكرون ، سألت مرة واحداً من أخوانى .

لماذا تحب أبناءك ؟ فكان جوابه أنهم بعضه وفلذة من كبـــده ألم يقل الشاعر :

وإنما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض ؟

إلى آخر هذا الهراء الذى يعذب فى السماع وتأنس إليه النفس وإن كان لاحول وراءه ، وقد أردت أن أنبه صاحبى هذا إلى ما بتعليله من المآخذ فقلت .

ـ وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من الانحدار إلى هذه الدنيا ؟

قال فى وجوم ـ ماذا تعنى ؟ من هم ؟

قلت : إن الجواب الذى تطلبه يستوجب منى أن أصارحك بحقيقة علمية لا أحسبك تجهلها ، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث فى المرة الواحدة مئات من الملايين من الجراثيم ، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج إلى الدنيا طفلا لو ساعفتها الأحوال وآزرها الحظ ، ولكنه قلما يكون هناك أكثر من جرثومة واحدة هى السعيدة الموفقة ، وما خلاها يذهب كما يراق الماء فى الصحراء . فالإنسان ـ إذا اعتبر هذه الحقيقة العلمية ـ يفقد فى كل مرة ملايين من الأبناء بقدر ما يضيع سدى من ملايين الجراثيم ، ولولا هذا الاقتصاد فى التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الكرة الأرضية وحدها ، بل مئات من الكرات الأرضية بنسله .

وهذه الجراثيم الضائعة ، أو إذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون ، هؤلاء الأبناء الذين لم يجيئوا ، بعضك أيضاً ، وهم أفلاذك أو أكبادك

كما تقول أو يقول الشاعر ، فلماذا لانراك أو نرى أحداً يأسى على فقدهم وهم بعضك ، كما تفرح لغلام ترزقه ، وتحبه لأنه بعضك ؟

الحقيقة أن المسألة ليست أن الأب لا يحب أبناءه إلا لأنهم بعضه ، فإن غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع الناس إلى طلب النسل ، وهى عاطفة يسهل على الرجل - كما لا يسهل على المرأة - أن يحولها إلى مجرى آخر تخرج منه شيئاً مختلفاً جداً، وعاطفة جديدة وإن كانت مولدة من عاطفة الأبوة . وهبها لم تتحول فإن من الميسور أن تنمو وأن تستوفى حظها على التبنى ، كما هو معروف ومألوف .

على أن الرجل والمرأة ليسا سيين فى هذه العاطفة ، وأكثر الفرق بينهما راجع إلى أن غريزة حفظ الذات أقوى فى الرجل من غريزة حفظ النوع ، أما المرأة فعلى خلاف ذلك والغريزة النوعية فيها أقوى من الغريزة الفردية ، إذ كانت هى بطبيعة تكوينها ، أداة المحافظة على النوع ، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك ، ومن هنا كانت الأمومة وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة من الأبوة .

• • •

بعد هذا الذى أسلفناه لانظن القارىء يستغرب أن نقول أن عاطفة الاخاء عادة ليس إلا ، والف لا اكثر ولا اقل ، وما احسبها تختلف فى حقيقتها عن عاطفة الصداقة ، وكل مافى الأمر أن اشتراك المصالح والنشأة الواحدة تجعل الروبط أمتن والأواصر أوثق . وليس أسهل من فسادها ولا أيسر من تفكك عراها إذا وقعت النبوة بين الأخوين لسبب من الأسباب ، فلامبالغة إذا قلنا أنها عاطفة لاتتميز إلا فى الظاهر

وإلا من حيث الاعتقاد العام فيها ، عن أية عاطفة تنشأ بين اثنين من أبناء آدم . وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدى أعاجيب ما تحدثه الوراثة إلى جعل الأخوين أشدما يكون اثنان تنافراً ، وقلما يفقد الوالدان حب ابنهما أو الولد حب أبويه ، ولكن ما أكثر ما يقع من التعادى بين الأخوين ويتباغضان ، ذلك أن للأبوة أو الأمومة أصلا تحور إليه ويبقى لها إذا فقدت كل معزز أو مقو ، ولكن ما بين الأخوين لا يرجع إلى أكثر من المصادقة .

والناس يدركون هذا ويفطنون إليه بالسليقة وإن كانوا قل أن يفكروا فيه ، فتراهم يطلقون لفظ الاخاء والتآخى على الصداقة ولا يستكثرون أن ينزلوا الصديق منزلة الأخ، ولا يحسون انهم هبطوا بمرتبة الاخاء من أجل ذلك ، ولكن الأبوة عندهم وعلى ألسنتهم فى كل لغة لها مقامها الذى تنفرد به ومنزلتها الملحوظة التى لا تدانيها منزلة . وليس أصدق من فطرة الجماعات ولا أصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها - عفواً ومن غير تدبر - من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى .

— ٢ —

قال لى صاحب قديم خلطته بنفسى زمناً :

« أصحيح هذا ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قال « هذا الذى كتبته عن عاطفة الأبوة »

قلت « وما سؤالك أنت أإنكار هو أم أسلوب جديد فى الإعراب عن الموافقة ؟

قال « أما ماذكرت عن عاطفة الإخاء وإنها لا تختلف عن الصداقة فى أصولها ، وإن النـاس يفطنون إلى ذلك بالسليقة فينعتون الصديق بالأخ ، فصحيح ، وكذلك ماأشرت إليه من أعاجيب الوراثة قد تقضى إلى التنافر بين الأخوين »

قلت « إن التعـادى قد يقع بين الأخوة حتى من غير أن يـكون للوراثة دخل ، وماأكثر الأسباب التى تؤدى إلى انفراج الحال ووقوع النبوة ، كأن يكونوا من أم واحدة أو أب واحد - أى غير أشقاء - أو يكون أحدهم أكثر توفيقاً فى الحياة ، أو آثر عند أبويه وأحب إليهما . وأحسبك تذكر قصة يوسف - عليه السلام - وحسد أخوته له لأنه أحب إلى أبيهم منهم :

« لقد كان فى يوسف وأخوته آيات للسائلين إذا قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخـل لكم وجه أبيكم وتـكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

وهذه الآية الـكريمة تريك كيف يتحدث الأخوة بقتـل أخيهم ويأتمرون به ويتفقون على إلقائه فى الجب وتركه لمن عسى أن يلتقطه من المـارة ، ويذهب به إلى حيث يشاء من الأرض ، ويبيعه أو يتخذه

عبداً له أو يصنع به ما يحب ، كأنما لايجرى فى عروقه نفس الدم الذى يجرى فى عروقهم، وكأنما لا تربطهم به صلة ولا تعطفهم عليه آصرة ،وكل هذا لماذا؟ لأن أباهم فيمايرون أحنى عليه منه عليهم وأكثر شغفاً به ورقة له!

وأدل من ذلك وأولى بالملاحظة أن أباهم نفسه يدرك بفطرته السليمة وبإلهام حبه ليوسف ، إن كون يوسف أخاً لهؤلاء ليس يمانعهم أن يسيئوا إليه ويكيدوا له غيرة وحسداً ، تأمل هذه الآية :

« إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين »

والتاريخ حافل بقصص الأمراء الذين لم يتحرجوا أن يقتلوا اخواتهم ليتبوأوا عروشهم أو ليحلوا محلهم فى ولاية العهد أو ليتقوا تآمرهم عليهم ، لا بل ليستولوا على زوجاتهم، وقل أن يقتل الولد أباه ، وأقل من ذلك وأندر أن يغتال الوالد ولده ، وعلى أى شىء تدور قصة هملت الخالدة ؟ أليس محورها كله أن عمه اغتال أباه وأفرغ السم فى أذنه وهو نائم فى الحديقة ، ليخلفه على الدولة ، ثم لم يرعه شىء أن يتزوج من كانت امرأة أخيه؟ والناس لايستفظعون أن يتخذ المرء زوجة أخيه زوجة له بعد أن يسرحها أو يموت عنها ،ولكن ما أشد استفظاعهم لأن يبنى المرء بمن كانت زوجة لابنه! وأفظع من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه ، لانها فى منزلة الأم ، حتى لقد حرمت الشرائع ذلك ، على حين كان المصريون يتزوجون الأخت

ولست أذكر هذا إلا على أنه مظهر للشعور الفطرى العام الذى

تقوم على قاعــدته الشرائع والقوانين ، وتدور عليه الآداب الصادقة لا التقليدية المتكلفة .

قال صاحبي ـ هذا صحيح ، ولكن ألاترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر من العادة والألف ؟

قلت ـ من قال إنها عادة ليس إلا ؟

إن الشعور الأبوى مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب ، وأساسه فى الرجل والمرأة واحد ، غير أن الرجل أقوى تمثيلا فى حياته للفردية منه للنوعية ، أعنى بذلك أن غريزة حفظ الذات أقوى فيه من غريزة حفظ النوع ، ذلك أنه هو الذى يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه ، وهو المتكفل بالسعى والذى يتعرض بسبب هــذا كله للأخطار ، فلا غنى له عن الاحتيال لدفعها بالقوة إذا تهيأ له ذلك ، وبالحيلة والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك إذا أعوزته المنة ، والحياة ليست باللقمة السائغة فهو محتاج إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تذليلها ، وهو فى كل خطوة يخطوها يصادف ماينبه غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس ، « ومن أجل هذا ـ كما قلت فى ـ حصاد الهشيم ـ » صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهاً وأكثر عملا ، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع . وهو لذلك أحس بها وأسرع تأثراً من ناحيتها ، ومن هنا كانت الأنانية فى الرجل أظهر وأقوى . والعامة يلاحظون ذلك ويفطنون إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من أبيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة ، ولكنك قل أن تجد

رجلا يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل ، والمثابرة على مداعبته والصبر على التحدث إليه، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات أو يند عنه من الأصوات ، واحتمال ذلك وماهو أشق منه ساعة بعد أخرى ، ويوماً بعد يوم ، وشهراً تلو شهر ، وحولا عقب حول .

أما المرأة فخلقت للنوع قبل أن تخلق لنفسها، وهى فى سبيل النوع تحمل وتضع وتتعرض للموت الوحى ساعة يجيئها المخاض . وتكوين جسمها شاهد بأنها مجعولة أداة للنسل ووسيلة لحفظ النوع ، فنى جوفها مكان معد للجنين تحمله فيه تسعة أشهر كوامل ، ولها ثديان يدران اللبن ، وجسمها مركب بحيث يتحول الغذاء إلى لبن ترضعه طفلها وتغذيه به حولا كاملا على الأقل .

فالعاطفة موجودة ، ومردها عند الرجل والمرأة إلى هذه الغريزة النوعية ، ولكن اختلاف الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له ، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى فى المرأة وأنضج منها فى الرجل ، ثم تجىء الصور الذهنية التى تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها . وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاخر لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا يسعها إلا أن تذكر ما عانت فى شهور الحمل وما جربت فى أطواره وأحست من حركات الجنين فى جوفها ، ثم ما كابدت من عذاب الوضع ، وكم الف الف صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك ، مذ كان طفلها وليداً إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال أو النساء، وكل حركة ومصة من ثديها وابتسامة ونظرة

وتعبيسة وعولة وصوت ونهضة وعثرة وخطوة - كل ذلك منقوش على صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها مذخور فى رأسها ، وجوها حافل بهذا الطفل ، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان تمهيدا له، وحاضرها مستغرق فيه، ومستقبلها آمال منوطة به ، وأخلق بهذا أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل احساس فيها ، وتسرب كل شعور اليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هذه الصور التى تحصل فى نفس المرأة أقل واضأل، فلا عجب أن يكون غذاء العاطفة الأبوية أتفه جداً مما يغذى عاطفة الأمومة . وهل الحياة إلا الصور التى تحصل فى الذهن ؟

يقول ابن الرومى فى رثاء ابنه :

توخى حمام الموت اوسط صبيتى
فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره
بعيداً على قرب ، قريباً على بعد

لقد انجزت فيه المنايا وعيدها
وأخلفت الآمال ما كان من وعد

لقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد أو ضم فى اللحد

أألح عليـــه النزف حتى أحاله
إلى صفرة الجادى عن حمـرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه
ويذوى كما يـــذوىّ القضيب من الرند
إلى أن يقول :

وإنى ، وإن متعت بابنى بعـــده ،
لذاكره ماحنت النيب فى نجد
واولادنا مثل الجـــوارح ايها
فقدناه كان الفاجع ألبين الفقـــد .
لـكل مكان لايســد اختلاله
مـــكان اخيه من جذوع ولاجلد
هل العين بعد السمـع تكفى مـكانه
ام السمـع بعد العين يهدى كما تهدى
اريحانة العينين والانف والحشى
الاليت شعرى هل تغيرت من عهدى ؟
أنى ما استمتعت منك بضمة
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
محمد ما شىء توهـم سلوة
لقلبـى إلا زاد قلبى من الوجد

أرى أخويك الباقيين كليهما
يكونان للاحزان اورى من الزند

إذا لعبا فى ملعب لك لذعا
فؤادى بمثل النار من غير ماقصد

فما فيهما لى سلوة بل حزازة
يهيجانها دونى واشقى بها وحدى

ولم نورد القصيدة كلها وان كانت ابياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع، وانما اقتصرنا على مافيه تمثيل لما نريد ، والذى نريد هو أن « نمو » عاطفة الابوة أو الامومة رهن بالصور الحاصلة فى الذهن وبجهد النفس وبالأمل الناشىء. وفى هذه الأبيات المتخيرة صور عدة - صور قبلات يذكر الأب حلاوتها ، وشمات لا تزال تتضوع إلى أنفه ، وضمات لا يفتأ يحسها ، وملاعب للطفل وعين أبيه ترعاه وتلاحظه ، وذكر شتى يهيجها الغلامان اللذان أخطأهم الموت ، بل كل شيء يهيج الشاعر إلى التذكر، وللمهد صورة وللحد أخرى ، ولما كان للامال فيه صور شتى ولما صار اليه فى التراب صور غيرها ، يتخيلها الشاعر ويتساءل عنها مشفقا موجعاً فيقول (ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى) ، ولصحته صور محببة ولسقامه وذبوله وما أصابه من النزف وذواه على الأيدى ، صور تكوى الفؤاد وتلعج القلب ، وللمحاته وبشائرها وافعاله وما كان يأنس منها وللرجاء فيه والفرح به وانتظار ماسيكون عليه ويصير اليه ، لكل ذلك صوره العالقة بالنفس المتشبثة بالضمير ، وهكذا إلى غير نهاية . وأين تكون نهاية هذا العالم الحافل بالذكريات المحشودة الزمر ؟ وماظنك بالام وعالمها أحفل ،وزمر ذكرياتها أحشد !

والذين تتحول هذه العاطفة الأبوية فى نفوسهم إلى مجرى آخر ، أعنى الذين يتبنون الآداب أو الفنون أو العلوم أو ماشاكل ذلك ، يستغرقهم حب ما انصرفوا اليه وتخلوا له ، ويدرى الناس مبلغ استغراق ذلك لنفوسهم واستيلائه على هواهم فيعجبون ويعدونه شذوذا ويحصونه عليهم ، ولو أنهم فكروا فى أنهم اعتاضوا من الأبناء هذا الذى شغفوا به ، وأنها هى عاطفة الأبوة فى صورة أخرى ومظهر جديد ، لما بدا لهم فى أمرهم وجه غرابة أو شذوذ ، ومن الذى يستغرب من الأب حب بنيه ووقف حياته عليهم وافراغ جهده فى سبيلهم وقصر سعيه على خدماتهم ؟ لاأحد ! بل هذا هو المعقول ، فلم يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوباً آخر أو تتدفق فى مجرى جديد أو تتخذ صورة غير المألوفة؟

كيف كنت عفريتا من الجن

•

كان ذلك وأنا فتى يافع أسوم كل سرح ، وأنهز بكل دلو ، ولا أفكر فى غير الساعة التى أكون فيها، ولا أبغى إلا أن أستوفى حظى فى الحياة، وإن أستوثق من أن كرعتى منها راوية . وفى ليلة من ليالى الصيف الحميدة ، ثنيت الخطا إلى البيت — وكان فى حىّ « الصليبه » — بعد أن قضيت وطرى من شراب وسماع ، فلما بلغته ووقفت على عتبته ، ذكرت ان ليس به أحد سوى جدتى التى أوفت على التسعين ، وأن المفتاح ليس معى،فقلت لنفسى « أيليق أن أزعج الجدة وهى تقوم بجهد ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عليها وتسند نفسها ؟ كلا، أولى بى أن أدعها مستريحة وأن الحق ببقيه الأسرة — أمى وأخى — والجو رائق والمشى منعش » .

وأوليت الباب ظهرى وانصرفت . ولم يكن الطريق إلى الامام ، فى فى تلك الأيام ، معبداً ، ولا ترام هنا ولا نور ، فليس طريق بأحسن أو آثر من طريق ، فاخترت أقصر مسلك وهو الذى يمر بمسجد « السيدة نفيسة » ويخترق المقابر المبعثرة وراءه ، ويتصل بالطريق العام المطروق عند اخره. ومضيت أخبط فيه، واتخبط أيضاً لأن كثرة المقابر وانتثارها وتزاحمها تضل ولاسيما فى الظلام، غير أنى لم أكترث لذلك ولا فكرت فيه،

وفوضت الأمر لرجلى تدبان حيث اتفقا أن تدبا فى أوقات شتى من النهار والليل ، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه ، وأردد فيما راقنى سماعه وأرجع ما شجانى من الانغام ، واعيتنى « مقطوعة » ، وأحسست أن المشى لا يعيننى على ضبط الصوت فيها واخراجها كما ينبغى، فوقفت وأسندت ظهرى إلى قبر وذهبت أغنى ، وهى صورة لا تزال ماثلة بذهنى إلى هذه الساعة وان كنت فى ليلتى تلك لم التفت إليها ، ولا جعلت بالى لها ، وكيف يعبأ شاب ثمل بالقبور وما انطبقت عليه ؟؟ وعلى انه متى كان المرء فى صدر العمر يفكر فى الموت، على انه حقيقة قريبة لامهرب منها ولا معدى عن مواجهتها ؟؟ ان الإنسان منا ينظر فى شبابه إلى الموت — حين يجريه شىء بباله — كما ينظر إلى شىء وراء الجبل — لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كنهه ولا يتصوره إلا على انه المجهول البعيد . ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب منه، وما يفتنه وهو يتوغل حتى يدنو من القمة،فتتزاحم فى رأسه الخواطر والتكهنات عما وراء هذه الرباوة التى قضى الشطر الجميل من حياته فى الصعود إليها،ويحضر إلى ذهنه شيئا فشيئا معنى الموت ومؤداه ثم يستبد بخاطره ولا يخاطره ويكون الأصعاد قد هد القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبلد إلى حد كبير من فرط التعب ويواجه فكرة الموت فى شىء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفزع .

وقفت اذن أغنى على القبر وأرسل الصوت فى ظلمة الليل غير حافل بما حولى من القبور المتزاحمة أو عابىء بما تحتى من الرفات الدفين . رفات قوم كانوا مثلى فى ميعة العمر وعنفوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويغنون ولا يفكرون فيما يصير إليه كل حى من الفناء الشامل . وما

فتمثلت إلى هذه الساعة أعجب لذهولى إذ ذاك عن الموت وأنا فى وسط لجته الراكدة . ان الشباب رحمة، وكيف كانت الحياة تكون لوان فكرة الموت كانت تخامر النفس من المهـــد إلى اللحد ؟ كان حريا بها إذن الا تطاق وكان خليقا بالمرء أن يكف عن كل سعى، وأن ينفض يده من كل جهد يبذله فى سبيل أية غايه بالغة ما بلغت من السمو والفتنة ، وما خير الحياة أو جدوى المساعى أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة لابتلاع الإنسان ؟ ؟ ان الموت هو اليأس ، ومن رحمة الله بالخلق أن الحياة أقوى ، وأن إحساس المرء بها أعظم،وأن وقعها فى نفسه أشد،وأن استيلاءها عليه أتم ، والشباب قوة دافقة ، والحياة معه تكون جديدة ، فلها كل حلاوة الجدة وسحرها ، ولكنها فى الكهولة تكون شيئا مألوفا وتجارب معهودة معادة ، ومن هنا لا يحس الإنسان بالفزع حين يخطر له أنه سيكف عن هذه الحياة التى ظل يذوقها حتى كاد يجتويها ، ولولا أن الحياة عادة ككل شيء فى الدنيا ، وأن المرء يألف أن يعيش وأن يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا ، فالعادة والخيال الذى ينمو مع العمر ، والاحساس بالنفس ، هذا هو الذى يجعل الموت صعبا ويجعل لمفارقة الحياة ألما . وعلى خلاف ذلك ، الأطفال والحيوان .

وبينما أنا واقف أغنى لمحت شبحاً مقبلا ولم أشك فى أنه رجل فما تجرؤ المرأة ــ إلا فى الندرة القليلة ــ أن تسير بين القبور فى الليل فكففت عن الغناء وساورتنى الشكوك . وخطر لى أن القادم قد يكون لصا ، وقد لا يكون ذلك،ولكن وحشة المكان وسكون الليل قد يغريانه

بالتلصص . غير أني طمأنت نفسى ، وقلت — وماذا أخشى وليس معى شيء يستحق السرقة ؟ إن هى إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها، ولا تفقرنى إذا خسرتها ، وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج ، وما أحسبه يستطيع أن يدركنى إذا أطلقت ساقى للريح ، فلا خوف من القادم ، وليكن من يشاء ، وليس من الحكمة أن أدع الخوف يشيع فى نفسى فتظهر دلائله فى صوتى وحركاتى، فيطمعه ذلك فى ، إن كان رجل سوء ، على أن الحزامة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزو ، لاراه دون أن يرانى ، ولاعرف ما ذا هو ، وليسير أمامى وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان .

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل ، أبيض اللحية وفى يده سبحة ، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدرى ماذا كان يتمتم، وبأى كلام كان يحرك شفتيه ، فغاظنى أن هذا الشيخ الضعيف قد أفزعنى ، وكأنما تحركت نفسى للانتقام منه ، فغافلته فى بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر فريع المسكين وكاد يتهافت إلى الأرض ، وأسرعت فتواريت وعدت أدراجى مسافة قبر أو قبرين - أى بضعة أمتار - وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشد بعضه إلى بعض وتفل يمنة ويسرة ورفع صوته بالاستعاذة من كل شيطان رجيم، واستأنف التلاوة والسير ، وأنا أتسلل بين القبور وراءه،وصارت خطاه أسرع ، فأدركت ان الخوف لا يزال فى قلبه ، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى ، ومددت يدى بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت ، ودرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد اجن من السرور والجذل ، وصدرى يكاد ينفجر

بالضحك المكتوم،وصبرت حتىمر بى فدفعت يدى إلى خصره ودغدغته فأقسم لقد وثب الرجل عن الأرض كأنما كنت قد غرزت فى جنبه سيفا أو حديدا محمياً ورأيت فرصتى سانحة — فقد بلغ الاضطراب بالرجل غايته ، وصار يخلط فى كلامه كالذى لا يعى ما يقول ، فكان يصيح « أعوذ بالله من . . . » من فرط ما أصابه من الفزع . وجئته من ورائه ورفعت صوتى بالزمزمة وبكل ما استطيع إخراجه من الأصوات المنكرة فانطلق الرجل يعدو . ! ؟

وهكذا أفلت منى . .! وكنت قد تعبت فلم أحاول أن الحق به،فمشيت متمهلا ونفضت التراب عن ثيابى وخرجت إلى الطريق العام المطروق وبعد قليل — ربع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الإمام الشافعى وكان المؤذن يمهد للآذان بغناء سخيف، والناس يخرجون إلى المسجد ليتهيئوا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبى الشيخ وهو يقول لهم: —

« وكان كالقط الأسود ، يثب على كتفى ويلحس لى خدى وينفذ من بين رجلى ، ويدخل بين الجبة والقفطان ، وكنت أستعيذ بالله فتنشق الأرض ويغيب فى جوفها ، ولكنه كان يعود فيظهر لى أحياناً فى صورة الدبة راكضاً على يديه ورجليه ، وأحياناً أخرى فى مثل كفن الميت خارجاً من تحت أحجار القبر ، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتف الوجه فى خرقة ويهوى الجسم إلى جدثه . ولست أنسى ما حييت أسنانه ! لقد كانت كالجمرات لامعة حمراء وكانت تضطرب فى فمه وتخفق كالنجوم والحمد لله الذى أنجانى من عناقه . . »

فقال أحدهم « : أراه هم أن يعانقك ؟ »

فقال الشيخ : « هم ؟ هم يعنى ماذا ؟ أقول لك أنه مد ذراعين كأنهما مئذنتين ودنا منى ليطوقنى بهما ولمـــع الشوك الذى فى صدره كأسنان الحراب فلولا أن ألهمنى الله أن أقرأ آية الكرسى لكنت أنا الذى مت . »

قال آخر « وهل مات ؟ غريب ! »

فقال الشيخ : « لقد احترق . حرقته آية الكرسى . ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا الطريق عند . . . . »

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذى نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرنى وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلى بيديه : ـ

« أهه . أهه . . أهو . . »

فلم يفهم أحد سواى معنى صيحته وأشارته ، ورددت الضحك الذى ازدحم فى حلقى والتفت ورائى، كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم : ـ

« أين ؟ إنا لانرى شيئاً ! »

فمسح الشيخ وجهه بكفه وفاه إلى الهدوء وقال : ـ

« غريب ! غريب ! أن هذا الافندى يشبهه جداً »

فلم أر مانعاً من الضحك وقلت : ـ

« أترى لى وجه عفريت ؟ »

وكان بين الواقفين رجل أعرفه ذكيا خبيثاً ويظهر أن الشك خالجه في الحكاية أو أنه فطن إلى بعض الحقيقة فقال لى :ـ

.. « إسمع . من أين جئت ؟ »

قلت « وقد أدركت ما يرمى اليه — جئت من هذا الطريق »

وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة . ولكنى خفت أن يجر الصدق إلى الفضيحة : فعاد يسأل »

« هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة »

قلت : « من القلعة ولا شك . ومن الذى يجرؤ أن يمشى بين القبور؟»

فتمتم شيئاً لم أسمعه ومضى عنى ونجوت

وهكذا عرفت أنى كنت فى ليلتى عفريتا من الجن !

رجل ســــاذج

كان لنا ـ ونحن شبان ـ رجل ساذج لم يعرف سوانا . كأنما قد هبط علينا من السماء . وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التى هو منها ، أو يقص علينا مغامراته ، أو يحدثنا بمعاشقه ، ويعرض ماعسى أن يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو منديل أو نحو ذلك ،وهوواجم كئيب لا يفتح فمه . وكان يخشى ركوب الماء ويجزع من اضطراب الزورق على متنه ، ولا يزال يتنقل من جانب كلما مال ، ولقد اضطررنا مرة أن نشده إلى سارية الزورق لنستريح من قلقه .

وأنشدته مرة قصيدة ابن الرومى التى يصف فيها ما لقى فى البر والبحر من التباريح والمخاوف . فلما بلغت قوله :

ولم لا ولو القيت فيه وصخرة
لوافيت منه القعر أول راسب ؟
ولم أتعـــلم قط من ذى سباحة
سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
وأيسر اشفـــاق من المـاء أننى
أمر به فى الكوز مر المجـــانب
وأخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنيه على مر راكب ؟

صفق وتحمس وقال إن هذا « رجل عاقل » وبعد أيام انتحى بى ناحية وسألنى أتعرف ابن الرومى ؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت « نعم »قال : « أرجو منك أن تعرفنى به » فوعدته أن أفعل . وشاورت أخوانى كيف أصنع ؟ ولما اتفقنا، قدمته إلى شيخ وقور كث اللحية الا أنه احمق سريع الغضب،وفى وسع القارىء أن يتصور ماوقع . وبحسبي أن أقول إن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابته عكازة الشيخ على رأسه وركبته ، وكانت أصابة الركبة أوجع فظل يظلع أياما . وسألته بعدها عن ابن الرومى كيف وجده ؟ فكاد الدمع يطفر من عينه وقال فى سذاجة محببة إلا أنها مغرية « الحق على . أن التهجم على كبار الناس سوء أدب . . »

ولست أنسى ما حييت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها فأفضت إلى مأساة أو ما هو فى حكمها . ذلك أننا أوهمناه أن فتاة رومية تعمل فى « بار » شهير تحبه ؛ وألححنا عليه بذلك حتى صدق ، وكنا نجيئه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها إليه ، وكان هو حييا يخجل حتى من مخاطبة الاغراب من الرجال فكيف النساء ؟ فجعل يغشى هذا (البار) فى الساعة التى يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى (الكيس) ويجلس بحيث يراها ولكن على بعد ، فندعه أحيانا ، وأحيانا أخرى نلحق به ونثنى على جمالها ونتنافس فى وصف مفاتنها ، فيشرق وجهه وتومض عيناه ، كأنما يحمد منا الثناء على حسن اختياره ! ونروح نسأله « ألا ترى كيف تغمز بعينيها ؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين ؟ فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سببا لما ننفجر به من الضحك. ومازلنا نحثه على إستعمال اشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه

طاقة شتى من الورود ما بين حمراء، رمز الحب المتقد، وبيضاء عنوان الطهر والعفاف، وصفراء للدلالة على ما اصاره إليه السهر والبكاء واللهفة من ذبول لونه، فيجلس ويشرع يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة، حتى إذا فرغ من هذا المعجم استعمل المناديل يضعها على فمه، أو يكفكف بها الدمع الموهوم أو يفركها بين أصابعه. ولم يعد يبالينا أو يحفل غيرنا من الناس فقد اضطرمت نفسه ولعجه حب هذه الفتاة .

والحق أقول أننا أسفنا لما تبينا ما صار إليه الأمر، ولكننا لم نستطع أن نثنيه عن هذيان قلبه ، وكان كما قلت ساذجا جداً حييا إلى درجة تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات، ولكن الحب خلق شخصا جديداً واسعفت السذاجة الحب واعانته على الاستبداد بنفسه، وما راعني يوما إلا هذا المسكين يعود إلى ويقول « هنئني » .

قلت وقد طاف برأسي أن المستحيل قد وقع « بأى شيء ؟ » .

قال « لقد خطبتها ! » .

قلت ولم أستطع أن أخفى دهشتى « خطبتها ؟ أنت ؟ » .

قال « نعم، ألست أحبها » .

فلم أدر أؤهنئه أم أرثى له ، وخرجت من هذه الحيرة باجتناب الإثنين جميعا وسألته « ومتى الزواج إن شاء الله ؟ » .

فطال وجهه فجأة وحاول أن يبتسم، ولكنه لم يوفق إلا إلى جعل وجهه مفزعا وقال : لن أتزوجها. وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى ايضاح، فزاد على ذلك « أعنى إنى أظن خير لى ولها إلا أتزوجها » .

فلم أرنى زدت بايضاحه إلا حيرة فصحت به بلهجة قاسية :
« إنك مغفل » .

فأدهشنى أن تنبسط اسارير وجهه وأن يقول « نعم أنا مغفل ولم اكن قط أجهل ذلك . وأنت تعلم إنى أحبها وقد خاطبتها فى الزواج . فكانت كريمة جداً مؤدبة جداً . لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضاً . والحق أقول يا صاحبى . لم يسعنى إلا أن أصارحها بأنى .. بانى كما تعلم مغفل ، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلا . . رجلا . . غير مغفل .. يجب ـ مادمت أحبها ـ أن أقدم خيرها على رغبتى . أليس كذلك؟ إن من حقها على وواجبى نحوها أن أراعى مصلحتها . . قل لى أليس هذا خيراً ؟ »

فلم أقل شيئا ومضيت عنه لا ساخطا ولا ناقما ، ولكن فائض النفس جائش الصدر وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القلب ؟ ؟ .

ولم نضحك بعدها منه أبداً .

ابن البلد

•

البلد القاهرة أو مصر - كما كانت ، وكما لا تزال تسمى هذه العاصمة - أو طائفة من الاحياء هى الواقعة بين العباسية والسيدة زينب ، وابنها شخصية شاع فيها الفناء علوا وسفلا وعفت عليها المدنية فلا يكاد المرء يلتقى بها فى هذا العصر ، وما أسرع ما تداعت الأسوار وطغى عباب الحياة ! قبل عشرين سنة فقط كنت ترى ابن البلد هذا « مستفيضا » وتلقاه فى حيثما تكون ولا تخطئه عينك وهى تدور بلحظها ، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الأحياء القديمة منها ، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدرى أن فوق ظهر الأرض سواها ، وهبه يدرى فما أقل ما يعبأ بذلك أو يحفله والزمن عنده اللحظة التى يكون فيها ، وهو ذكى إلا أنه جاهل ، وظريف سوى أنه مغرور ، وحى ولكنه لا يحيا إلا بحواسه، تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذى يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئاً ولا يسأل عن شىء ولا يكترث لشىء ، ويحتقر الريف لأنه يجهله ، ويزدرى المدنية لأنه لم يألفها ، ويعتز بنفسه ويستضخم أمرها لأنه سهر الليالى وأحياها بالغناء والشراب والعربدة وهو مثال الرضا عن النفس والجمود الذى يخلفه هذا الرضا وإذا كان يرى كل شىء من قريب فما من شىء يدعوه إلى العجب أو يبتعث الرغبة فى الاستطلاع

وكل إحساس له يصل اليه عن طريق الفكاهة ، وأشد ما يبغض أن يضطر إلى الجد والوقار ،وليس فى نفسه محل للاعتراف بالجميل، والامر عنده مجاملة متبادلة أو حق ، له أن يجبيه وعليك أن تؤديه ، هو المثل الاعلى لنفسه ـ أو لعله جار سابع أو ثامن ـ فليس لغير نفسهاحترام ولا مطمح له إلا أن يظل قادرا على التحفظ بمظهره ، فلا عناية له بالسياسة أو شئون الحكم ، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهماتها أن يرى مواكب رجالاتها ومن التطلع إليها أن يتصور نفسه راكباً مركبة المحافظ أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على «رياض باشا» ، يفتح عينيه على الدنيا كل يوم قبيل الظهر ، فتنحى الستائر عن النوافذ ويؤذن لنور النهـــار أن يدخل ، وبعد أن يقضى ما يشاء من الساعات التى تأبى إلا أن تكر ، فى التمطى والتثاؤب وتناول الطعام والقهوة المرة مذاباً فيها العنبر ، يقوم إلى ثيابه فينتقى منها جبة وقفطاناً منسجمين متجاوبين ثم يلف العمامة — ولفها مهمة شاقة قد يستغرق بقية النهار إلى العصر — ثم ينزل إلى المنظرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه ثم يخرج إلى دكان بدال أو حلاق أو عطار أو غير هؤلاء ، ويتوافى الرفاق وتروى أنباء السهرات . ويسأل السائلون عن « عبده » أو « عثمان » أين يغنى الليلة . ويتفق الاخوان على مكان يجتمعون فيه وشراب يجلسون إليه . ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من النهار إلى المغنى ولعلهم غير مدعوين فيظلون. إلى طلوع الشمس فى آهات صاخبة وضوضاء ترج ما بقى من الرأس وتزلزل الكيان .

ومجالس أبناء البلد نكات خشنة وضحك مقرقع . وأعذب مايكون

طعم الحيـاة فى أفواههم حين يركبون صاحباً لهم بدعابة عملية . أعرف واحداً من أظرف أبنـاء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية لا يرضى عن نفسه إلا إذا استطاع أن يوقع واحداً ممن يسهل التماجن عليهم فى مأزق أو يزج به فى ورطة . وكان يستثقل ظل واحد من حراس المقـابر . وكان هذا لايفتأ يغشى مجلسه وينغص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت وإحضاره إلى ذهنه . فأراد أن ينفيه عن هذا المجلس فأوعز إلى خادم فاستأجر هذا مكارياً وبعثه برسالة إلى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان تاجر معروف والدته مريضـة يدعوه فيها إلى الحضور إليه بأسرع مايستطيـع للاتفاق على بناء مقبرة لجاء المكارى إلى الحـارس بالرسالة ففضها فتهلل وجهه وراح يحسب الربح المنتظر من وراء هذه « المقاولة » فلم يصرف المكارى بل ركب الحمـار ومضى إلى التاجر ودخل عليه وحياه ودار بينهما حديث :

الحارس - إن شاء الله تـكون الوالدة بخير

التـاجر - بخير بارك الله فيك

الحارس - هل هى مريضة جداً ؟

التـاجر - نعم ولـكن الله المسئول أن يخفف عنها ويلطف بها

الحارس - إن شاء الله . لقد بعثت لى حضرتك برسالة وقد جئت حسب أمرك

التـاجر - (مستغرباً) رسالة لماذا ؟

الحارس - نعم ألست حضرتك فلاناً ؟

التاجر - هو بعينه

الحارس - إذن الرسالة منك

التاجر - ولكن .. هل تسمح لى بمعرفة اسمك ؟

الحارس - آه ! يظهر إن حضرتك لم تعرفنى ، ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت إلى برسالة . أنا فلان

التاجر - أرجو .. أن تزيدنى بياناً فلست أذكرك ولامؤاخذة

الحارس - هذا غريب !

ورأى أن يحل الإشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التى تلقاها . وتصور موقف الرجلين حين فض الرجل الخطاب واطلع على هذه (البشرى) فى الصباح الباكر

ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع (الكنافة) وأقنعه بتجربتها . وجاءنا البخيل بعد أيام - وكان ذلك فى رمضان - يشكو ويسخط ويلعن ويقول : « اشتريت أربعة أرطال من الكنافة ، وناولتها امرأتى وقلت أعديها ، وجئت بثلاثة أرطال من اللبن الحليب كما أوصانى اللعين خيبة الله عليه ! - وغلينا اللبن قبل المغرب بدقيقتين ، وكانت (الكنافة) قد نضجت . فلما سمعنا مدفع المغرب صببنا اللبن عليها وأغرقناها فيه ، وأقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكاناً (للكنافة) وإذا بها عجين لايؤكل ولايصلح لشىء إلا أن يرمى للكلاب!! - وهكذا ضاع على ما أنفقته فى الكنافة من السمن والسكر واللبن والزبيب والصنوبر والبندق والجوز واللوز وثمن الوقود ، وضاع على سائر ألوان

الطعام التى لم أكد أمسها ترقباً للكنافة . فماذا أدعو عليه ؟ »

وابن البلد لايعرف الريف ولايصبر عليه ، وإذا خرج إليه استغرب أن الطريق ليس غاصاً بالمساكن المتلاصقة ، وإن الأشجار قائمة هنا وهناك ، وأن الدنيا أرحب مما كان يظن ، وأحس بالميل إلى الضحك ، ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التى غادرها ، ويرى نفسه بين الفلاحين غريباً ويسمعهم يتكلمون فيما لايفهم ، ولايسعه إلا أن ينهز معهم بدلوه ، ويخطىء عندهم سهراته ومجالسه ، ويحتاج أن يغير عاداته وأن ينزل عنها وأن يحتمل الاضطراب الناشىء عن ذلك ، ولا يحس فى الريف ذلك التعاطف القريب، ولايفهم أن ينام على ظهر الفرن ومع النساء والأولاد والطيور والبهائم لأن له (مزاجاً) والناس فى الريف أكثر ما يكونون ، بعداء بعضهم عن بعض ، وهم يقضون أوقاتهم مبعثرين فى الحقول فليس فى مجالسهم ذلك الصقل ولاتلك النعومة التى تكون لمجالس أهل المدن ، فهى لا تخلو من جفوة طبيعية وتكلف محسوس وصخب مرجعه إلى اعتياد أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبعد المسافات بينهم ، وقلما يشعر الحضرى بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب «حادثة» يندر أن تتكرر، فيتدفق الكرم المحبوس إذا لم يكن له مجال ! ولظهوره فرصة كبيرة فيقبل الناس عليه ويفرحون به إقبالهم على التحفة النادرة أو المنظر الذى لايجود به الزمن مراراً ـ وهكذا كان الحال قبل أن توثق المدنية ما بين القـــرية والمدينة من الروابط ، وتسهل عليهما الاتصال والتبادل والتفاهم والتقارب .

وابن البلد قد يكون أديباً أو فناناً ـ إذا كان قد جاور فى الأزهر

فى صدر شبابه ، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمنهما نكتة لفظية أو معنوية ، يداعب بها صديقاً ، وأكثر ما يكون نظمه للأزجال والمواليات ، وربما نظم التوشيح ودفع به إلى ملحن أو مغن ، وهو لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن إليه ، وإذا كان فناناً فهو من هواة (العود) على الأخص ، تبتدئ وتنتهى دنياه بالشراب والسماع والوجه الحسن ، وفيما عدا ذلك لا وجود للدنيا .

ولا يعرف ابن البلد الحب ولا يحسن أن يعشق ، والجمال عنده يوزنه أرطالا أو قناطير ، والمرأة مخلوق يداعب ويغازل ويحمش إلى آخر ذلك ، وليست إنساناً يبادلك التعاطف ويعاونك فى الحياة ويقاسمك متعها ومتاعبها ويؤدى مثلك وظيفته التى خلق لها . وقد ترى ابن البلد عاشقاً ولكنه عاشق بحواسه ، لا يعرف صبوة النفس إلى النفس وحنة القلب للقلب .

وهو يجود فى غير كرم ، ويمسك فى غير بخل ، ويتكلم بغير علم . ويضحك بغير جدل . ويحتشم فى غير أدب . ويسير فى الدنيا غير محتفل . ويقضى الحياة غير عابىء بما كان أو مكترث لما يكون . همه أن يأكل وينام ويسر ويضحك . فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الأخوان غرض يسعى إليه وغاية تعتمد . والحياة آخرها الموت . فما خير التعب فيها وإرهاق النفس بالعمل والطلب ؟ أليس كل شىء إلى فناء ؟ فما أولاه باغتنام الساعة التى يكون فيها وما أسخف من يعنون أنفسهم ويحرمونها لذاذات العيش ومتع الوجود ؟ ألم تر إلى فلان الذى قضى عمره يجمع المال

ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الأعتاب ويقتر على نفسه ليغنى ويضيق على ذويه ليتسع ؟.. ألم تر إليه كيف قضى نحبه وهو جالس على باب الحلاق ؟ فاذا أجدى عليه تعبه وسعيه وتقتيره وحشده ؟. إن فيه لعبرة لسواه. فهات الكأس وأصلح الأوتار ، وأطلق صوتك بالغناء ينفى عن النفس وحشتها وتجلو صداها وتنسها أن الحياة إلى انقضاء.

فابن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق فى الأبيقورية المشوهة ، ولم يعف عليها الزمن حين عفى عليه.

صورة وصفية لصحفى

•

قضى (م.) سنة كاملة يعمل فى سكون فى الصحيفة التى التحق بها ، ويؤدى الواجب الذى وكله إليه رئيسه باخلاص ودقة وكان واجبا شاقا ولكنه كان يجد فيه ملهاة عن هموم الحياة . وعرف له رئيس التحرير فضله فكان لا ينفتأ يثنى عليه ويشجعه ويبلغه حسن رأى الناس فيه وحمدهم مجهوده ، وكان يخجله ان يسمع هذا المدح ولا يدرى بماذا يجيب فيقطب ـ وهو يريد ان يبتسم ـ ويتلفت يميناً وشمالا كأنما يبحث عن نافذة يثب منها .وطلب منه رئيس التحرير يوما صورته فريع المسكين وقال « صورتى ؟ »

قال « نعم صورتك . نحن فى ديسمبر كما تعلم »

قال وقد زادت حيرته « أعلم هذا ، ولكن ما العلاقة بين كوننا فى ديسمبر وبين صورتى ؟ »

فابتسم رئيسه وقال « قد اعتزمت أن أعطيك جواز ركوب مجانى للترام . هذا ما استطيع أن اكافئك به الآن ، وقد كان بودى ان ازيد مرتبك ولكن لا أرى هذا ميسورا فى الوقت الحاضر . وفى مرجوى أن أستطيع بعد قليل »

ولبث أياما يخجل أن يبرز الجواز أو ينبىء عمال الترام انه «ابونيه» ويؤدى أجر الركوب ، ذلك أنه أحس بشىء من الحرج لان الجواز

مجاني ، وخيل اليه لغير ماسبب معقول - أن (الابونيه) منحة من الشركة ، فلا يبعد أن يخطر لها يوما أن تسترده ، وتجسم له وهمه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة ، فقال له (ابونيه) فطلب رؤية (الابونيه) وفتحه ثم طواه ودسه فى جيبه وقال (تذكرة من فضلك) ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا ، صار يستدرج أخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه . أو على الأصح يركب معهم وأن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجع ، حتى ألف هذه الحالة الجديدة . وعلى أنه مع ذلك ظل زمنا كلما مر به عامل الترام وهو راكب ، يتوخى أن يكون سلوكه وهيئته على خير ماينبغى . فاذا كان واضعاً رجلا على رجل انزلها وإذا كان يتكلم صمت ، وإذا كان ناظرا إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تلميذ لمحه المدرس يتشاغل عن الدرس .

وكتب يوما مقالا ودفعه إلى رئيسه فما راعه فى اليوم الثانى إلا رؤية المقال فى صدر الجريدة وفى ذيله اسمه . فالتقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكد له أنه لم يذيل المقال باسمه ، وأن المسئول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب .

فقال رئيسه « ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يجهل اسم كاتب مقالاتك ؟ »

فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لاجبنا ، بل لأنه لايحب أن يتهم رئيسه بقلة الفهم ، ومضى الرئيس فى كلامه فقال :

« لقد وضعت اسمك فى آخر المقال حتى من غير أن استأذنك » فتمتم « العفو . أستغفر الله »

« لأنى رأيت أن من الواجب انصافك . إن أسلوبك فيه فن وقوة لا أرى لهما مشبها فى كتابات غيرك . ومن العدل أن يعرف القراء أنك أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم »

فوجد قوة كافية للاعتراض فقـــال : « ولكنى لا أعرف أن لى أسلوباً . . . »

فقاطعه رئيسه إن هذا تواضع يزيد قدرك .

فتحامل على نفسه وقال « أؤكد لك أنى صادق »

« لا شك فى ذلك »

« ليس لى أسلوب أو فن ، وليس فى قولى هذا شئ من التواضع أنها الحقيقة . »

قال الرئيس « إذن هو كبر أن يكون بك كبر »

قال « كلا . كلا . ولا هذا »

قال الرئيس وقد ضجر « إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام »

ولكنه لم يسترح ، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر فى واحدة منها . فوضع القلم يائساً وقال ما أظننى أستطيع أن أكتب شيئاً بعد هذا ، وراح يعجب كيف كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصى عليه الآن ، أسلوب ؟ فن ؟ ماذا يعنى ؟ إن كل مايعرفه إنه كان يتناول القلم ويجريه على الورقة ، وكانت الألفاظ تسعفه ولم يكن يجد عناء فى تخيرها ، بل لم يكن يتخير أو ينتقى ، فما له الآن لايقدر أن يخط حرفاً ؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد لعله يقع على مافيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذى يذكرونه ، فلم يهتد إلى أسلوب أو فن ، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن فى الخروج ، وقد أيقن أن مستقبله فى الصحافة قد قضى عليه .

•

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرى مسألة من المسائل . فقال « أرجو أن تدع لى مفاتيح المكتبة »

فذهل رئيس التحرير وقال « المكتبة ؟ أو تحسب أن هذا مما يوجد فى الكتب ؟ »

فسأل « أين إذن أجده ؟ »

قال « لو امهلتنى لما أحوجتنى إلى هذا . » وشرح له الموضوع ثم قال « فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية فى مكتبه »

فسأل « متى أستطيع ذلك ؟ »

فضجر الرئيس وقال « لاتكن طفلا يام . . . »

وفى صباح اليوم التالى ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة ، فلما دخل لم يدر إلى أين يذهب ولا إلى أى ناحية يقصد ووقف لحظة يدير عينه فى البناء ويرجو أن يلقى أحداً تكون له به معرفة ، ولما طال الأمر راح يتمشى ثم خشى أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندى الواقف بباب الوزارة وقال :

هل تستطيع أن تدلنى على غرفة صاحب المعالى الوزير ؟ »

فصعد الجندى فيه نظره وصوبه ثم قال « أدخل من هنا وامشى فى خط مستقيم »

ففعل ولم يزل داخلا حتى صار فى حجرة واسعة فاخرة الأثاث ولكنه لم يجد فيها لا مكتبا ولا وزيراً والتفت فرأى بابا مواربا قد عنقه وأطل منه فرأى مكتبا وليس أمامه إنسان، فشجعه خلو المكان فالتفت وراءه فلم يجد أحداً، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير ولكن الشك خامره. إذ أين الوزير والساعة الآن الحادية عشرة؟ وكيف يخلو المكان من حجاب وشرطة وموظفين قائمين فى خدمته؟ كلا. بل أكبر الظن أن الوزير فى مكان آخر. ورجع فالتقى بشرطى فسأله. فقال بل هى الغرفة وهنا (وأشار إلى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير. فحمل بطاقته مستأذنا فى الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن مخبرى الصحف مساكين لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه ببطاقاتهم مقدما. وأذن له فى الدخول فحياه بلسانه ورفع يده بالسلام فلم يزد السكرتير على أن هز رأسه، وقال نعم. قال هل أستطيع أن أقابل معالى الوزير؟

قال السكرتير « أنه مريض ».

فقال صاحبنا « مريض؟ لا بأس عليه. أرجو أن تبلغه سلامى »

فابتسم السكرتير وخرج م. وقد سره أن الوزير مريض وأنه نجا من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى.

وخيل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يتعمد أن يصرفه عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل فقد بعث به فى اليوم التالى

إلى وزير الحقانية ، فخرج ولم يركب فى هذه المرة سيارة لأنه تفقد مافى جيبه فاستقله ، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات ، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدما . ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات فسأل بعض من لقيهم فى الطريق فدلوه ، وكان وهو سائر يفكر فى ثقل هذه التكاليف وفى هذه الضرورات المتعبة ، وانتقل من هذا إلى التفكير فى الموضوع الذى يقصد إلى الوزير من أجله ، فلم ير أن المسألة تحتاج إلى استفهام أو لقاء وزير ، وكيف يبدأ الكلام؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب ؟ ولماذا لايذهب رئيس التحرير بنفسه ؟

وكان فى أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلم فصعد وهو لايزال يحاور نفسه وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطى إليها فأعرب له عن رغبته فى مقابلة الوزير ،وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحب به وطلب له قهوة وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل .

فقال الوزير « أهلا وسهلا . . . زيارة نادرة ، تفضل »

فجلس على حرف الكرسى وافتر فمه عن ابتسامة بلهاء ، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم ، ولكن لسانه خانه كأنما قد استل منه ، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكه ، وكان الوزير دمثا ريض الخلق فابتسم وقال له وهو يميل إليه :

« أتشرب القهوة ؟ كلا ! إذن خذ سيجارة ؟ ولا هذه ؟ ألا تدخن ؟ »

فأومأ المسكين برأسه أن نعم ، فقال الوزير « إذن يجب أن تدخن ؟ »

وقدم له العلبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلا عن ذلك أن يطير بكمه بضع أوراق .

وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه ، فضحك الوزير وقال : « لا بأس والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك »

فجر صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحنح ثم استطاع بجهد أن يفضي بالموضوع ، وكان الوزير فى أثنـــاء ذلك يقطب حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض ما يسمع منه ، وهو مستغرب ، وصاحبنا لايفطن إلى آيات الدهشة فى وجهه ولايدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل،وأخيراً قال : « وقد جئت راجياً أن تتفضلوا على ببيان واف على قدر المستطاع فى هذا الموضوع »

فقال الوزير ولم يخف امتعاضه « ولكن هذا من اختصاص وزير الحقـانية »

ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن إلى الغلط الذى وقع فيـــه ولاستطاع أن يحسن التخلص . ولكن لسانه سبق رأسه فقال :

« ولهذا جئت لمعاليكم »

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه « ولكنى لست وزير الحقـــانية » فبهت المسكين ، ووقف لســانه فى حلقـه ، ودارت به الأرض ورثى الوزير له وادركه العطف عليه فلاطفه وقال :

« لا بأس ، الغلط مردود (وضحك) لم يضع الوقت ، يمكنك أن

تقصد إلى وزير الحقانية الآن ، لقد سرتنى زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى ، نهارك سعيد »

وخرج م. وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً . ماذا عسى أن يقول عنه رئيس التحرير أو أى إنسان حين يعلم أنه يخلط بين وزير الحقانية ووزير ...أى وزارة هـــذه التى كان فيها ؛ حتى هذا لا يعرفه أو هـل يجرؤ الآن أن يستخبر أحدا ؛ وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلا أى وزير قابل فوق ما كان من جهله وتخليطه .

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقانية ويقابل وزيرها . ولـكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه إلى علاج ، فقصد إلى قهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكى جرعها صرفاً ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلا ، فشرب كأساً ثانية وثالثة ثم قام إلى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل ، ورأى من الأمانة أن يكاشف رئيس التحرير بما كان من غفلته . فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسيه وقال :

« يا صاحبى . انك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة بأسرهـا من الـكتاب حين تجلس إلى مكتبك ، ولـكن حين تلق الناس لا تعود صالحاً لشىء أو قادرا على شىء . فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلقك خلقاً جديدا

حلم بالآخرة

— ١ —

وادى الاشباح

عدت من هياكل (الكرنك)[1] مكدوداً معفراً ، وكان الجو دافئاً والسماء صافية لا أعرف لزرقتها فى غير (الأقصر) مشبها ، فغيرت ثيابى وبدا لى أن خير ما أصنع — لأريح جسمى التعب وذهنى المكظوظ — أن أركب زورقاً أسبح به على النيل . ولما استويت فيه دليت يدى إلى الماء وانثنيت أفكر فيما رأيت واستعيد ما شهدت ، ولكن صورة (سخت) فى حجرتها المظلمة أفسدت على هذه الفكرة التى كنت أرجو أن استمتع بها فى زورق على النيل ، ومن ذا الذى يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه — رأس لبؤة وجسم امرأة ، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عين سبع ، تحدقان فى الظلام وتبحثان عن الفريسة وذلك أنها هى الموكلة بالتهام الارواح المذنبة فى الآخرة .

وأغفيت وأنا أفكر فيها ، ورأيت وأنا نائم على النيل حلماً مضطرباً كله تخليط على عادة الأحلام . وانقلب النيل نهراً آخر — ستيكس — نهر الأغارقة الذى تقول أساطيرهم أن الموتى يعبرونه إلى وادى الأشباح ،

(١) فى سنة ١٩٢٤ .

وآض الملاح الذى يجدف به على النيل (شارون)(١) وإذا على الشاطئ حشد عظيم من الأموات يسوقهم « هرمز » بالعصا وهم يبكون ويولولون ويندبون الحياة التى خلعوا ثوبها ويبغون الرجعى إليها ولا يطيقون الحقيقة العارية الباقية التى صاروا إليها ، ولا يتعزون عن أحلام الدنيا التى كانت تفيض لهم على الوجود بريقاً مستعاراً خادعاً ؟ آه لقد ذهب سماؤهم كلها مع تلك الأحلام !

وحشروا جميعاً فى الزورق الذى اتسع لهم جميعاً ، الأطفال حزمة واحدة بلا سؤال أو مراجعة ثم الشيوخ والعجائز الذين لم يبكهم أحد ثم قتلى بعض المعارك فى جهات من الأرض لم أسمع بها فى حياتى - فما أحوج علم الجغرافيا إلى بعثة تذهب إلى هناك - ثم رجل قتلته امرأة وعشيقها ، ثم الذين افنتهم الحميات ومعهم طبيب هرم ، ودفع شارون الزورق على اللجة ، وتركنى على الشاطئ فاحسست بالوحشة وخفت أن اتعفن إذا بقيت وحدى إلى الغد ،فصحت بشارون أن يحملنى معه فأبى وقال إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم ، فيئست غير أن واحدا من الركاب أهاب بى أن ألقى بنفسى فى الماء وأسبح فقلت له إنى لا أحسن السباحة وقد ... أغرق

فقهقه وقال : ماذا تخشى من الغرق وقد مت ؟

فرميت بنفسى فى الماء وعمت إليه ومد يده يجذبنى ودار بعينه فلم

---

(١) الملاح الذى ينقل الموتى على زورقه إلى وادى الأشباح .

ير لى مكاناً فاطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال وهو يبتسم :

أنا أيضاً قلق فى موضعى هذا ، فتعال بنا ننتق لنا اثنين من هؤلاء المعولين المنتحبين نجلس على اكتافهما!

وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجرة النقل ، وتنبهت إلى ذلك فقلت لصاحبي « ولكنى معدم وقد جردونى من كل شيء لما مت فماذا أصنع ؟ »

قال : « لا بأس عليك ! فما أنا بخير منك ، فاسكت أنت ودع الامر لى »

وجاء شارون يطلب الأجر ، فقال له زميلى :

« ماذا تنتظر ممن ليس معه شيء ؟ »

قال شارون : « كيف ؟ أهناك أحد ليس معه أجرة النقل إلى الوادى ؟ »

قال : « لا أعلم ولكننا هنا اثنان لا نملك مليما فأشر ماذا تأمر ؟ »

قال شارون : « واثنان أيضاً ؟ وحق بلوتو اخنقكما ! »

قال زميلى : « خذ الأجرة ممن بعثوا بنا اليك ! »

قال شارون : ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدى لى هذا الحق فلماذا تستعد قبل هذا المجيء ؟ »

قال : « لم يكن معى شيء ، فهل كان ينبغى أن نظل أحياء وألا نموت من أجل ذلك ؟ »

قال شارون : « اتريد أن تكون الوحيد الذى يحمل إلى الوادى بلا مقابل ؟ »

قال : « كلا ! لست الوحيد فان لى رفيقاً ومؤنساً إلى جانبي كما بينت لك ، وعلى أنا لا نحمل مجاناً ، فانا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكى ولا نندب ، ثم انا خفيفان لا نثقل زورقك ، وإذا شئت عاوناك ولم نقاسمك الربح ولم نطلب منك الأجر »

قال شارون : « ولكن هذا لم يحدث قط من قبل فهو غير جائز ! »

قال : «إذن ردنا إلى الحياة»

فالتفت شارون إلى هرمز (١) وقال :

« من أين جئت بهذين الحمارين ؟ وانظر كيف يضحكان ، على حين يبكى كل إنسان ؟ لقد كان أولى أن يبقيا هناك على ظهر الأرض فما هما بجديرين بالموت »

ومضى عنا وهو يسبنا ويتوعدنا بقبضة يده ، فأسر إلى زميلى :

« ما أسخف وعيده ! أيموت المرء مرتين ويحمل إلى الزورق مرتين ؟ »

ثم قال لى بعد برهة ..

« لقد هبطت أنغام العويل والنحيب ، فما قولك ؟ أليس من الواجب أن نضطرهم إلى رفع طبقها ؟ »

---

(١) هو الذى يتلقى الموتى ويذهب بهم إلى شارون لينقلهم

قلت : « ولكن كيف يسعك ذلك ؟ »

قال «انتظر»

وتنحنح ثم انطلق يغنى :

اقبل الليل علينا بدجاه فاسقنا ، فالعمر آيات الشباب
غننا صوتا كأمواج الحياة بين لين واعتلاج واصطخاب

●

ولم يكد يفرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصياح والنشيج .فواحد يقول « وا أسفاه على ما خلفت ؟ » ، وثان يصرخ « ويحى سيبدد أخى ما ورث عنى » ، وثالث يصيح « ألا من لصغارى ! » ، وهكذا .

ومضى صاحبي فى غنائه :

أقبل الليل فهات القدحا أو ليس العمر أيام الصبا ؟
غننها لحنـا نديا فرحا يطلق الأوصال من قيد الحجى

●

وارقصوا بين المنايا واطربوا أو ليس العمر أيام النعيم ؟
وإذا ما لامكم مستغرب . فدعوا اللائم يذهب للجحيم

فدنا «هرمز» منه وأومأ إليه أن كف ثم قال :

« أن هذا لا يليق ومن واجبك أن تندب كالباقين »

قال مستغرباً « أندب ؟ أأندب الحظ الذى أتاح لى هـذه النزهة الظريفة ؟ »

قال هرمز « أن سلوكك شاذ . فارسل عولة أو اثنتين على الأقل فما يجوز أن تشذ عن المألوف »

قال زميلى «حسن . سأفعل »

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح ..

« وا أسفاه على ثوبى المرقع الذى لا يقى فى شتاء ولا ينفع فى صيف واحزناه على الحق ، لن أجوب الطرقات بعد اليوم متضورا من الصباح إلى المغيب ، ولن أنام على الأفاريز وأتوسد الحجارة وأسنانى تصطك من البرد ، من ترى سيرث عكازتى التى كنت أتوكأ عليها ؟ ويختال فى مرقعتى التى كنت أخطر فى هلاهيلها » !

فمضى هرمز عنه ساخطاً لاعناً ورحنا نحن نضحك .

وأنا لكذلك وإذ «بشارون» ينادى هرمز ويصيح به :

أن الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل . فماذا يفعل ؟

« فوقف هرمز كالأبله حائرا ، ثم وثب رفيقى وقال « تعال ننقذ شارون فانا مدينون له »

قلت « أن الغرق شيء أفهمه وقد أحسه . أما ما عداه فلا علم لى به يا صاحبي »

قال « ولكنك تستطيع أن تشاركنى على الرغم من ذلك

ثم قال لشارون : « اسمع . جرد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به فى الماء . انزع هذه اللحى عن أصحابها . لقد كانت تنفعهم فى الدنيا أما

هنا فهى مثقلة بالغش والتضليل . ودعاوى التقوى والوقار والحشمة ،

قال شارون «صدقت» ونزعها جميعاً ورمى بها « وماذا أيضاً ؟ »

ــ ألا ترى هذا الرجل الذى يبكى ويختلس النظر إلى من حوله؟

قال شارون « نعم . ماله ؟ »

قال « أخرج من تحت أبطيه الكذب والنفاق والدهان تتخلص من خمسه قناطير على الأقل . وهذه المرأة الجميلة ،عر وجهها وجرده من المساحيق فان وزنها يجاوز الطن ، أفعل وعجل . » ففعل .

« وهذا الغرور الذى تنطق به عينا هذا الرجل ، ألا تحس ثقله ؟ أنه يكفى شعباً بأسره ! »

« والفلسفة التى فى رأس هذا ، أنها أثقل من الحديد . ألق بها فى الماء . أسرع . »

فأطارها شارون عن رأسه

وهذا الأديب هاك . ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ والمجازات والاستعارات والخيالات والسخافات ؟ إنها كافية وحدها لأغراق زورقك يا شارون »

قال شارون «نعم والله ! أين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال ؟ »

ثم التفت إلى زميلى وقال « كفى كفى يا صاحبى ! أن الزورق الآن أخف من الريشة . وأحسبنى مديناً لك بإنقاذ سفينتى . »

قال زميلى مقاطعاً « أمسك لا تثقلها مرة أخرى بشكرك إياى »

وعدنا إلى مكاننا وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرق أمواجه الراكدة ودنونا من الشاطىء عند الفجر وحاذيناه فوثب صاحبي إلى الأرض وأنا وراءه

ثم أهوى على الباب العتيق بحجر ضخم وراح يدقه كالذى يريد أن يحطمه فهب «اتروب»[1] وقد طار كراه وأقبل على البـاب يتعثر فى مشيته ، ورمى مصراعيه وسأل : من الطارق ؟

قال زميلى « أنا »

قال «أتروب؟» ، « أنت ؟ أنت ماذا ؟ ماشانك هنا ؟ ما اسمك ؟ »

فال الى زميلى وقال « كأنما كنت شيئاً فى الدنيا فيعنيه أن يعرف من أكون » ثم التفت إلى الحارس وقال :

« ومن عسى أن أكون ؟ أتراك تتــوهمنى بروميثيوس قد فك أصفاده وجاء يعتق البشر من أسر الموت ؟ »

ثم لوح بيده مشيراً إلى الركب الذى فى الزورق ورفع صوته مغنياً :

حى يا اتروب ألوان الصباح   طلع الفجــر عليـكم بالرمم
بين ندب وعويل وصـياح   جاء وفد الموت من كل الأمم

•

---

(١) آتروب حارس الباب بوادى الأشباح

جاء وفد الموت يحدوه الدليل ويغنى سوطه فوق الظهور
ويميل الصف فى كل مميل وهو خلف الصف وثاب يدور

•

لست خيراً منهمو وا أسفاه أو كان (الخير) إلا شططا
غلط جاد به ، ثم أباه ، دهر سوء لا يعيد الغلطا

•

بل يعيد الغلط المسترذلا ! أو ليس الناس أغلاطا تعاد ؟
ولو أن الدهر شاء الامثلا لخلت منهم قراهم والبلاد

•

وكان هرمز وشارون فى خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق ، فلما سمع الموتى هذه الأغنية تصايحوا وضجوا وهموا بزميلى ولكنه تلقاهم بابتسامة استخفاف وقال لهم : أيسوءكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها ؟

فارتدوا ساكنين ، وتقدم هرمز بورقة فيها بيان مجمل بعدد الموتى ، فتسلمها أتروب وبدأ يعد ثم كف وهو يقول :

« ماأظن ميتاً يفلت أو حياً يجيء قبل الأوان . إمض بهم يا هرمز إلى ساحة رادامانتيس[1]

فساقنا هرمز أمامه ، وتقدم صاحبي الصفوف وسرت معه فى طليعتها وانطلق يغنى :

---

(١) قاضى الآخرة فى أساطير الإغريق

دارنا مغرب أنوار الحياة | من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاه | ما لما يغرب فيها من شروق

وهى فى الأكوان دنيا عافر | كل زخار له فيها ركود !
ضرب السحر عليها ساحر | فهى عنوان على عقم الوجود !

وطال بنا الانتظار على باب رادمانتيس إلى أن جاء دورى فتقدمت وزاحم زميلى فدخل معى ولما صرت أمام القاضى سألنى : ما اسمك ؟

قلت : « المازنى »

قال : « ماذا ؟ الـ . . الـ . . ماذا ؟ »

فلو كنت حياً لاحمر وجهى وقلت :

« المازنى . لقد كنت أحسب شهرتى قد سبقتنى »

قال : دع هذا المزاح . من أين جئت ؟ »

قلت : « من مصر »

قال : « مصر ؟ ولماذا جئت إلينا ؟ »

قلت : « وأين كان ينبغى أن أذهب ؟ »

قال : « إنك من إفريقية فاذهب إلى قسمك »

قلت : من أين ؟! عهدى حديث بهذا الوادى »

قال ؛ « لا بأس ، سيدلونك عليه . ياهرمز . أرشد هذا التائه إلى سومبور »

فألقيت إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه ، فجذبني إلى الوراء وأسر إلى : « سأذهب معك »

قلت : « ولكنك لست من مصر »

قال : « ماذا يهم ؟ من أنا حتى يعرفوا أمن مصر أنا أم من غيرها ! هيا بنا.»

— ٢ —

بين أيدى القضاة

انصرفنا من ساحة رادمانتيس وثنينا الخطا إلى الشاطىء - وكان هرمز قد سبقنا - وفى مرجونا أن يحملناشارون إلى القسم الإفريقى فألفينا هرمز وشارون مختلفين. يقول هرمز:

« لقد آن جداً يا شارون أن تؤدى إلى ذلك الدين القديم فما بقى لك عذر »

فيقول شارون : « ما احسبنى أنكرت قط يا صديق أنى مدين لك »

فيهز هرمز كتفيه ويمط شفتيه ويقول : « لشد ما نفعنى انك لاتقصر فى الاعتراف ! . هذه عملة لا أعرف أحدا سواى يقبلها ، فهات ماعليك وانكر إذا شئت أنك مدين لى »

فيبتسم شارون ويفرك كفيه ويقول : « ولكنك لم تبين لى قط مقدار هذا الدين ، فيقبل عليه هرمز ويقول : « ان البيان حاضر فليتك مثلى

استعداداً لتقديم الحساب . المرسى والحبل بسبعين قرشا . »

فيقاطعه شارون « سبعون قرشا . وحق بلوتو لقد خدعوك !
أو انت تضحك على شيبتي ! »

فينتفض هرمز واقفاً ويقول بصوت عال « أضحك عليك ! أنا ؟
أهذا جزائي منك ؟ لامال ولا شكر ؟ »

شارون ـ هون عليك يا صاحبي فما إلى هذا قصدت . سبعون قرشا
إذن وماذا أيضاً ؟

هرمز ـ وابر لترقيع القلع ، وشمع لسد الخروق ، ومسامير ، وجلد
للمجاديف بعشرين قرشاً ،

شارون ـ صفقة حسنة . وماذا ؟

هرمز ـ هذا كل ما أذكر ، تسعون قرشا ، وبسط يده

شارون ـ الآن يا صديقي يتعــــذر علي أن أنقذك هذا القدر ، فان
العمل قليل والربح ضئيل . لاوباء يفتك بالناس ، ولا حرب تحصدهم ،
ولكني أعدك أن أؤدي اليك دينك إذا نشطت الحركة »

هرمز ـ ممتعضاً ـ الأفضل عندي أن يظل دينك مطولا .

ثم نظر إلينا وقال « هيا بنا »

فقال شارون « هذان المفلسان لا يجب أن يعودا وأن ترفضهما
حتى الجحيم .

فقال صاحبي « الا تنقلنا إلى . . »

فقاطعه شارون ولم يمهله ريثما يتم كلامه « أنا ؟ أتراني جننت ؟ اذهب انت وصاحبك فما فيكما خير . »

وهكذا رددنا ، وذهبنا سيرا على الاقدام ، وجعل هرمز يشكو في الطريق ويتسخط ويعرب عن تبرمه بحياته وكثرة الواجبات الموكولة إليه . فهو يقوم في الفجر ويعد المائدة السماوية ويرتب حجرتها ثم يقف بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدى رسائله إلى أصحابها النهار كله ، وفى الليل لاينام بل يذهب بالموتى إلى بلوتو ويقف فى ساحة القضاء حاجباً ، ثم أنه يدرب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها الحصر . حتى لقد كان يؤدى وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزيا (زيوس) فى زى نسر ويخطف الغلام (جانيميد) ويتخذه ساقيا له يأخذ من كأسه رشفة ، ومن شفتيه البضتين أخرى ، ويكايد به زوجته (هيرا) .

وأخيراً بلغنا سهلا فسيحا أمام (الكرنك) وسرنا مسافة فى ظل أشجار الليمون ، حتى خرجنا من تحتها ووقفنا مع آلاف الموتى من أمثالنا ، وكان القضاة خمسة وقد جلسوا صفاً واحداً ، فأسر إلى صاحبي ان تعال نشهد الرواية من أولها ، وجذبنى وزاحم بى حتى صرنا إلى الصف الأول فسمعنا من عرفنا ممن حولنا أنه (سومبور) وهو رجل نحيل هزيل الجسم متهضم الوجه أسود العينين براقهما وفى يده زهرة من زهرات البردى يقول :

« أيها الزملاء ، ان (سخمت) تنتظر ! »

فسرت في أجسامنا رعدة ، ونودى الأول فتقدم وسمعنا كلاما كهذا .

سومبور - وهو يعبث بزهرة البردى - قل الحق الذى تعرفه ولا تحاول أن تكذب . أهى الخمر ؟

قال الرجل - نعم

ديارناك - (وهو مديد القامة معتدلها كالجندى لا يلتفت يمنة أو يسرة وحول وجهه لحية كثة) .

« هل حوكمت من قبل على الشراب ؟ »

الرجل - لا يا سيدى

ممبرون - (وهو عريض الوجه لماع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل يبتسم تارة ويتجهم أخرى وفى إحدى كفيه قطعة من الذهب وفى الأخرى صورة صغيرة)

« كيف تقول ؟ من أى بلد أنت ؟ »

الرجل — من قرية اسمها...

بوتا (وهو بدين قصير أحمر الوجه أبيض الشعر له عينان كعينى الخنزير وأمامه ختم ذهبي كبير) .دع هذا وقل لنا لماذا أولعت بالشراب ؟

الرجل — لأنه مرض .

بوتا — لست أفهم . انى أحب الكأس أو الاثنتين من الويسكى مشعشا بالصودا ولكن الافرلط . . . هذه هى المسألة .

الرجل — أن المسألة هكذا ، كلما الح على الإحساس بالشقاء

افرطت فى الشراب ، وكلما افرطت فى الشراب زاد الحاح الإحساس بالشقاء . . .

ممرون — الحلقة المفرغة مرة أخرى .

موروسكن (رجل مثقف مغضن الوجه على ذراعه قطة يمسح لها شعرها بيده الأخرى) وماذا عندك غيرهذا على سبيل الدفاع عن نفسك ؟

الرجل — لا شيء . ولقد يخيل إلى الآن بعد أن مت ، انى كنت أستطيع أن أنقذ نفسى لو انى اشتغلت فى الدنيا بوصف السعادة للناس حين أحس أنا بالشقاء .

وروسكن — أتقصد انك كنت تريد أن تكون روائيا ؟ هذا جميل الحق أقول ياسومبور . إنى أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم فى الدنيا على قاعدة من مرض الفنان أو شقائه . أليس كذلك ؟ .

سومبور — قد يحلو لك هذا البحث . أما أنا فاطلب أصواتكم .

ديارناك — أن الشرب أفقد الدنيا جنديا . فليقذف به إلى (سخت) .

ممرون — سخت .

موروسكن — ولكن الرجل يكاد يكون فنانا، إن التماس السعادة ...

سومبور — ليس عندنا وقت لهذا . هاتوا بقية الأصوات .

بوتا — سخت .

سومبور — خذوه إليها — باربعة أصوات .

* * *

وجروه إلى شجرة ليون وهمس صاحبي فى أذنى « جاروا ولم يعدلوا » .

قلت « ولكن موروسكن » .

فقاطعنى صاحبي « أنه مغفل » .

ونودى الثانى ، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قد السيف ، ولكن عينيها ، على جمالها ، كالكهفين .

وقال سومبور — كم سنك يا هذه ؟ .

الفتاة — اثنتان وعشرون سنة .

موروسكن — قبل الأوان . قبل الأوان .

بونا — لماذا مت ؟ .

الفتاة — فزعا .

موروسكن — فزعا ؟ ما أقسى هذا .

سومبور — من أى شيء ؟ .

الفتاة — من الشرطة .

ممبرون — آه أمنهن أنت ؟ .

الفتاة — نعم يا سيدى ، ولكن مهما يكن ذنبي فقد شاركنى فى اثمه رجل .

موروسكن ـ متأثرا ـ هذا حق وأنها لمن الفظائع الكبر ، أن يضع الرجال الشرائع وأن يتحيزوا فيها لأنفسهم .

بونا — ولكن ماذا دفعك إلى هذا ؟

الفتاة — تزوجت رجلا كانت حياتى معه جحيما ثم أحبنى آخر

وظننته « الرجل الموافق » ولكن الغريزة خانتنى ، ولقيت ثالثا قلت لعله هو الموافق ولكنه لم يكن ، وهكذا حتى لم أعد أعبأ من يجيء ومن يروح وأن كنت لم أزل أرجو أن أفوز « بالرجل » .

موروسكن ـ آه ! طلب الكمال والسعى إلى المثل الأعلى . .

بوتا ـ ماذا تقول أمراتى لو سمعتها ؟ أن لى فتيات . . . دعوها ، أخلوا سبيلها .

ممبرون ـ أن روابط المجتمع تتفكك إذا أطلقناها . فلتذهب إلى « سخت » .

ديارناك ـ سخت .

سومبور ـ صوتان يطلبان لها الخلاص ، وآخران يبعثان بها إلى سخت فعلى أن أوازن وأن أرجح أحد الرايين . إذا اطلقناها فكأننا أبحنا الخطيئة ، فبأى وجه بعد ذلك ننهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقعتها وننذرهم سوء المصير . إن هذا يكون خطراً بينا ، نعم أن الرحمة والعطف يدركان النفس على مثل هذه المسكينة غير أنا خلقاء إلا نطمئن إلى الصوت الذى يدعونا إلى الشفقة ويغرينا بالرحمة ، ولا أكتمكم إن نفسى لا تطاوعنى على الحكم عليها ، ولكنى على الرغم من ذلك أحس انى أكون منكراً لنفسى ومعطلا لسلطانى ومبطلا لوجودى إذا أعفيتها من العقاب ، ونحن هنا قضاة الآداب وفياصلة الاخلاق ، افننكر أنفسنا ونعطل وظائفنا؟؟ كلا ! فبكرهى أقول « سخت » فلتؤخذ إليها بثلاثة أصوات .

فسارعت باسمة وإن ظلت عيناها زائغتين ، وحطت على كتفها وهى سائرة حمامة بيضاء ، فأمالت إليها خدها .

وقال صاحبي : « جاروا للمرة الثانية ، والحمامة شاهدى » .

ونودى الثالث ، وكان إلى جانبي . فرفعت إليه عينى وعجبت كيف يكون صاحب مثل هذا الوجه شريراً ؟

وسأله سومبور ـ ماذا جاء بك إلينا ؟

الرجل ـ طردت عن كل باب ؟

موروسكن ـ يو شك أن يكون هذا ممتعاً ، فماذا انت ؟

الرجل ـ أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة .

ديارناك ـ قل وأوجز لماذا طردت .

الرجل ـ لأنه لاخير فى ، لأنى جاهل ولا مزية لى إلا حب كل ماهو حى . لأن كل من يلقانى يقول : « إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق لنا سوى الحب ، وما جدوى الحب ؟

ممرون ـ انك عامل من عوامل الانحلال والتفكك .

الرجل ـ كالريح أيضاً ـــ هى التى تحلل وهى كذلك التى تؤلف وتجمع .

سومبور ـ وهل فى وجودك ما يعارض وجود القضاء ؟

الرجل ـ إن من يتقبلوننى لا يعودون يعنون بالحكم على شيء لأن

قلوبهم تكون أحفل بالحب من أن تفكر فى سواه .

ديارناك ـ انت متمرد .

الرجل ـ كلا ، ولكن حيث أكون لا يبقى محل للأمر والنهى لأن كل شئ يكون فى خدمة الحب.

بوتا ـ هذه فوضى .

موروسكن ـ انى معجب بك ، ولكنى أحب أن أطمئن ، فقل لى : هل وجودك يضر براحة الحياة ونعيم العيش ؟

الرجل ـ ما هى الراحة ؟ وأى شئ هذا النعيم ؟ أهما شئ غير الايثار وكف الأذى وأن يخفق القلب بالغبطة وان . .

موروسكن ـ دعنى من فضلك .

بوتا ـ ماذا يكون مصيرى لو أشركت الناس فى مالى ؟ وآثرتهم على نفسى ؟

كلا ! يا سيدى ، إن خير اللدنيا إن تفتح سخت فها لتبتلعك .

سومبور ـ إذا بقيت إنت فلن يبقى محل لى ولا لقضائى .

ديارناك ـ ولا لجنودى .

عبرون ـ ولا لشرائعى .

موروسكن ـ ولا لراحتى ، فأنا آسف .

واجتمع الخمسة على أن يلقموا سخت هذا المسكين .

قال صاحبي « لقد أصابوا »

قلت « ماذا تعني ؟ بأى حق يرسلونه إلى سخت ؟ »

فقال « ليس هذا وقت الجدال ، فانهم يشيرون إليك »

قلت « إلى أنا ؟ »

والتفت إلى الخمسة فوجدت عيونهم على ، فتقدمت فى اضطراب ووجل .

قال سومبور ـ من انت ؟

أنا ـ أنا المازنى .

بوتا ـ انت ماذا ؟

أنا ـ أقول انى المازنى .

ديارناك ـ بأى لغة تتكلم ؟ أسرع .

أنا ـ انه اسمى .

موروسكن ـ مسكين إن صبرك على حمل هذا الاسم يرفع عنك أوزارك .

أنا ـ ليس هذا ذنبي .

موروسكن ـ قد غفرناه لك فماذا انت ؟

أنا ـ أديب .

بوتا ـ أديب ؟ اذن فانت عاطل وطفيلي

أنا ـ كلا . لقد قتلني العمل وما كانت شكواى إلا قلة الراحة .

موروسكن ـ اسمعوا . اسمعوا !

سومبور ـ مهلا . اتيحوا له فرصة . بأى شئ كنت تشتغل .

أنا ـ بالصحافة .

الجميع ـ الصحافة ! ؟

وانتفضوا جميعاً واقفين يشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف الثلاثة المقضى عليهم .

وقال سومبور : سخت بالاجماع .

ثم التفت إلى زملائه وقال : وحسبنا اليوم هذا واعفوني من شهود التنفيذ فلست أقوى عليه بعد هذه الصدمة .

•

ووقفت تحت الشجرة مع رفاقي الثلاثة انتظر « سخت » وإذا بصاحبي يجذبني ويقول :

« تعالى يا ابله »

قلت : « إلى أين ؟ »

قال : « ماذا يعنيك وقد نجوت من سخت ؟ »

قلت : « نجوت ؟ كيف كان ذلك ؟»

قال : «لقد عز على أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيدوا « سخت » فلما صار القضاة عندها سبقت الحارس فاطلقتها عليهم فالتهمتهم بدلا منكم ، ولكنى والله اسف على نجاة جارك ! على انى على العموم أرانى أعدل من هؤلاء القضاء يرحمهم الله »

فأرسلتها صيحة فرح عالية فتحت عينى على النيل وحقائق الدنيا على شاطئيه .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٨٨ /٢٠٠١

I . S . B . N 977 - 01 - 7229 - 4